الرسالة الأولى

من الإسكندرية إلى المرية[١]

كان انفصالى عن الاسكندرية للوفود إلى الأندلس بسُحرة يوم من أيام سنة خمس وأربعين وثلاثمائة من هجرة المصطفى ﷺ، الموافقة سنة ست وخمسين وتسعمائة لميلاد السيد المسيح، صلوات الله عليه، وذلك فى سفينة عَدَولية[٢] لأمير المؤمنين بالأندلس عبد الرحمن الناصر، لم تر قطّ عينى مثلها، وكان عبد الرحمن فيما بلغنى مُولعًا بإنشاء السفن والأساطيل، فأنشأ هذا المركب الكبير الذى لم يُعمل مثله وسير فيه أمتعة وبضائع إلى بلاد المشرق لتباع هناك وتستبدل بها بضائع من هاتيك البلاد فمر بكثير من ثغور البحر الشامى وكان آخر ما مرّ به الاسكندرية[٣].

ولما نزلت هذا المركب رأيت فيه كثيراً من أهل بغداد والموصل والشام

---

(١) المرية ويسميها الإفرنج Almeria ثغر من ثغور اسبانيا واقع على البحر الأبيض المتوسط، وكانت زمن هذه الرحلة مرسى للسفن القادمة من المشرق القاصدة إلى القطر الاندلسى.

(٢) أى ضخمة من قول طرفة بن العبد يصف السفينة:

عدولية أو من سفين ابن يامن ... يجور بها الملاح طورا ويهتدى

قال فى اللسان: قال الأصمعى العدولى من السفن منسوب إلى قرية بالبحرين يقال لها عدولى ثم قال وقيل إنما هى منسوبة إلى موضع كان يسمى عدولاة.

نقول: ولعل هذا هو الأقرب إلى الصواب ولعل عدولاة هذه هى آدولى وقد جزم بذلك وبأن السفن العدولية منسوبة إلى آدولى هذه استاذنا الدكتور نالينو المحاضر كان بالجامعة المصرية، قال البستانى فى دائرة معارفه: تحت كلمة «آدوليس أو آدولى» هى مدينة قديمة فى الحبشة فى جون من البحر الاحمر على الشاطئ الغربى وتسمى الآن زويلة وأركيكو وكانت فى القرن السادس للميلاد ميناء لاكسوم.

(٣) جاء فى كتب التاريخ عن هذا المركب وعن ولوع الناصر بإنشاء المراكب والاساطيل ما لا يكاد ينحرف عنه كلامنا ـ راجع تاريخ أبى الفداء وابن الأثير وابن خلدون.

ومصر يريدون الوفود إلى الاندلس ـ وممن عرفت منهم عالم لغوى أديب من أهل بغداد يعرف بأبى على إسماعيل بن القاسم بن عيذون القالى[١] وفقيه مصر أحمد ابن أبى عبد الرحمن القرشى الزهرى[٢] وفقيه مقرئ يُسمَّى أبا الحسن على بن محمد بن إسماعيل بن بشر التميمى الانطاكى[٣] وتاجر رُحَلة من أهل الموصل يعرف بابن حوقل[٤] وقينة اسمها فضل المدنية[٥] وأصل هذه القينة كما أخبرتنى لإحدى بنات هارون الرشيد ونشأت وتعلمت ببغداد ونهدت من هناك إلى المدينة المشرفة فازدادت ثَم طبقها فى الغناء ثم اشتريت للأمير عبد الرحمن مع صاحبة لها تسمى علم المدنية وصواحب أُخريات.

وقد عقدت الغربة بينى وبين فضل صحبة ـ لأن الغريب كما قيل للغريب نسيب ـ فرأيت منها أديبة ذاكرة حسنة الخط راوية للشعر حلوة الشمائل معسولة الكلام ـ ذلك إلىَ حذقها فى الغناء ولباقتها به مع الظرف الناصع، والجمال الرائع فكانت ـ صَنع الله لها ـ سلوتنا فى سفرنا وكانت تجلو هموم السَّفْر[٦] ومرض البحر، بما تنفثه بيننا الفَينة بعد الفَينة[٧] من سحر الحديث الذى يأخذ بالألباب ويرتفع له حجاب القلوب.

---

(١) دخل أبو على القالى الاندلس سنة ٣٣٠ هجرية أيام عبد الرحمن الناصر، وسنة ٣٣٠ وسنة ٣٤٥ قريب من قريب.

(٢) دخل هذا الفقيه المصرى الاندلس العظيم سنة ٣٤٣ قال ابن حيان فاكرم الناصر مثواه وكان فقيه أهل مصر.

(٣) قال ابن الفرضى أدخل الانطاكى على الاندلس علما جمّا وكان اماما فى القراءات لا يتقدمه أحد فيها، مات بقرطبة سنة ٣٧٧.

(٤) وفد ابن حوقل على الاندلس حوال سنة ٣٦٠ ومر كذلك بصقلية.

(٥) جاء فى نفح الطيب أنه اشترى للأمير عبد الرحمن صاحب الاندلس قينة اسمها فضل والظاهر أنه يعنى عبد الرحمن الأوسط لا عبد الرحمن الناصر فليلاحظ ذلك، على أنه جاء فى كتب التاريخ أنه كان فى هذا المركب ـ مركب الناصر ـ جوارٍ مغنيات اشترين للناصر من المشرق.

(٦) أى المسافرين.

(٧) الحين بعد الحين ومثلها الخطرة بعد الخطرة.

فهو كما قال أبو حية النميرى فيمن يقول:

حـــديـث إذا لم تخـش عـــينا كـــأنه
إذا ســاقـطتـه الشـــهـد أو هـو أطيب
لو أنك تـســتـــشـــفى به بعـــد سكرة
من الموت كـادت سكرة الموت تذهب

ولما أقلعت بنا السفينة من مرسى الاسكندرية تحركت الريح الشرقية نسيما فاتراً عليلا ثم غشّى البحر ضباب رقيق سكنت له أمواجه، فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير فبقينا لاعبين على صفحة ماء تخاله العين، سبيكة لجين، كأنا نجول بين سماءين، فكان لذلك منظر هو قيد النواظر وغُلّ[١] الألباب وشرك النفوس ـ تجلى لنا فيه جمال الكون وصانعه، فكنت ترى السماء صافية الأديم، زاهرة النجوم، وكوكب الزهرة مقبلا من ناحية المشرق يحفه الجمال والجلال، فلولا التُقى لقلت جَلت قدرته، وترى البحر كأنه مرآة مصقولة تنظر السماء فيها وجها، فكأنما الماء سماء، وكأن السماء ماء، وترى النوتية مجدين فى التجذيف على حال لو هممت بتشبيهها بشىء حسن لاضطرك حسنها إلى رده إليها:

مجاذف كالحيات مدت رءوسها
على وجل فى الماء كى تروى الظما
كما أسرعت عداً أنامل حاسب
بقبض وبسط يسبق العين والفما[٢]

وفيما بين ذلك تسمع فضلا تغنى فى قبتها مواليا بغدادية ساحرة وبين يديها مزهر تقلدته أطرافها:

تمـــيت به ألبـــابنا وقلوبنا
مـــراراً وتحـــيـــهن بعـد همـود

(١) الغل القيد. (٢) البيان لابى عمرو يزيد بن أبى خالد اللخمى الاشبيلى الاندلسى.

إذا نطقت صحنا وصاح لنا الصدى
صياح جنود وجهت لجنود
ظللنا بذلك الديدن اليوم كله
كأنا من الفردوس تحت خلود

ومضى على ذلك ثلاثة أيام بلياليها كنا من أوقاتها فى بُلهنية[١] من العيش، وغفلة عن أعين الدهر، ووصال أخضر، ونعمى لا يشوبها بؤس ولا كدر، فلما كان اليوم الرابع ـ ولا كان ـ هبت علينا ريح عاصف رمتنا بها الأقدار من حيث لا ندرى، فأرغى البحر وازبد، وأبرق وأرعد، وتلاطمت الأمواج، واهتاجت أيما اهتياج، وصار بها عَمرَكَ الله مثل الجنون، وتراءت فى صورها المنون:

وقد فغر الحمام هناك فاه
وأتلع جيده الأجل المتاح[٢]

فانقالب يسرنا عسراً، وأدال الله من الحلو مراً، وعظم الخطب، وعم الكرب، ونحن فى ذلك قعود، كدود على عود، وقد نبت بنا من القلق أمكنتنا، وخرست من الفرق ألسنتنا، وتوهمنا أنه ليس فى الوجود أغوار ولا نجود، إلا السماء والماء، وذلك السفين، ومن فى قبر جوفه دفين:

البحر صعب المرام جدا ... لا جعلت حاجتى إليه
أليس ماء ونحن طين ... فما عسى صبرنا عليه[٣]

ولبثنا على هذه الحال من ظهر اليوم الرابع إلى سحره، وبعد ذلك فترت الحال بعض الفتور، ثم جاءت ريح رُخاء زجت السفينة إلى بر جزيرة اقريطش «كريد» أهنأ تزجية وأخذنا نسير فى محاذاتها، فما كان إلا كلا ولا حتى وصلنا إلى مدينة

---

(١) رخاء لا يشوبه سوء ـ من البلاهة.
(٢) لابن خفاجة الاندلسى ـ فغر فتح والحمام الموت وأتلع مد والمتاح المقدر.
(٣) المقرى صاحب نفح الطيب.

الخندق[١] إحدى مدنها ومرافئها العظيمة، فأرسينا بها ريثما نشترى منها ما يعوزنا من الخبز واللحم والماء والفاكهة.

أقريطـــش :

وهذه الجزيرة من جزر بحر المغرب الكبيرة، فيها مدن وقرى كثيرة، يقابلها من بر أفريقيا لوبيا، وجميع سكانها الآن مسلمون، وأميرها يسمى عبد العزيز بن شعيب من ولد أبى حفص البلوطى الاندلسى[٢] وذلك فيما علمت أن الحكم بن هشام أمير الأندلس كان قد أمعن صدر ولايته فى اللذات، فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه، وطالوت الفقيه وغيرهما، فنقموا عليه وثاروا به وبايعوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربى من قرطبة ـ محلة متصلة بقصره ـ فقاتلهم الحكم واستلحمهم، وهدم ديارهم ومساجدهم فلحقوا بفاس من أرض العُدوة[٣] وبالاسكندرية، وبعد أن أقاموا فى الاسكندرية حينا من الدهر تلاحى رجل منهم مع جزار من سوقتها فنادوا بالثأر واستلحموا كثيراً من أهل البلد وأخرجوا بقيتهم وامتنعوا بها وولوا عليهم أبا حفص عمر بن شعيب البلوطى ـ ويعرف بأبى الفيض من أهل قرية مطروح من عمل فحص البلوط المجاور لقرطبة ـ فقام برئاستهم، وكان على مصر يومئذ عبد الله بن طاهر من جهة المأمون، فزحف إليهم وحصرهم بالاسكندرية فاستأمنوا له فأمنهم وبعثهم إلى هذه الجزيرة ـ أقريطش ـ فعمروها وأضاءوها بنور الإسلام وشيدوا بها المعاقل والحصون والمدن العظيمة مثل الخندق التى اشترينا منها خبزنا ولحمنا، وبهرنا ما رأينا فيها من حضارة العرب وعز الإسلام، ولا يزال أميرها إلى اليوم ـ وهو سنة خمس وأربعين وثلاثمائة ـ من ولد أبى حفص

(١) كنديه Candia.

(٢) كل ما ذكر عن كريد تاريخى حقيقى.

(٣) مراكش.

البلوطى، وهو الأمير عبد العزيز بن شعيب، أدام الله عليه ملكه، وأبعد عنه كيد الأعداء.

* * *

ولما أقلعنا عن بر جزيرة أقريطش أسعدت الريح، وأصحت السماء، ونام عنا البحر، وأخذت السفينة تشق اليم، شق الجلم[١] وأخذنا فى سمت جزيرة صقلية (Sicily) وما زلنا حتى قطعنا سبعمائة ميل فى مدى أربعة أيام بلياليها.

ولما قاربنا صقلية وصرنا منها أدنى ذى ظَلَم[٢] أخذت أعيننا أشباحًا كالأعلام تسير على وجه الماء تنضم إلى بعضها تارة وتنصاع كسرب القطا أخرى، فتساءلنا، فقيل لنا إن هذا أسطول المعز لدين الله أبى تميم معد العبيدى يغدو ويروح بين صقلية وبين قِلّوريه (Calabria) من بر الأرض الكبيرة «أوروبا» فاغتبط بهذا المنظر تاجر مغربى أديب من أهل المهدية، نزل معنا من أقريطش بنية الوفود إلى صقلية، وأخذت منه هزة الطرب حين رأى أسطول بلده، ورفع عقيرته ـ وقد أنافت برأسه النُّعَرة ـ نعرة العصبية ـ قائلا: لله أبو القاسم محمد بن هانئ الاندلسى شاعر سيدنا المعز لكأنه يرى ما نرى الآن حين يقول، فى هذا الاسطول:

اما والجوارى المنشآت[٣] التى سرت
لقد ظاهرتها[٤] عدة[٥] وعديد[٦]

---

(١) المقص.

(٢) أقرب شىء إليها تقول إنه لاول ذى ظلم لقيته إذا كان أول شىء سد بصرك بليل أو نهار ومثله لقيته أول وهلة وأول صوك وبوك.

(٣) السفن.

(٤) عاونتها.

(٥) عدد وآلات.

(٦) اناس متعددة كثيرة ـ جنود.

قباب[١] كما ترخى القباب على المَها[٢]

ولكنّ من ضمت عليه أسود

عليها غمام مكفهرّ صبيره[٣]

له بارقات جمة ورعود

أنافت بها أعلامها[٤] وسما لها

بناء على غير العَراء مَشيد

من الراسيات الشم لولا انتقالها

فمنها قنان شمّخ وربود[٥]

من الطير إلا أنهن جوارح

فليس لها إلا النفوسَ مصيد

من القادحات النارُ تضرم للصَّلَى

فليس لها يوم اللقاء خمود

إذا زفرت غيظًا ترامت بمارج

كما شب من نار الجحيم وقود

فأفواههن الحاميات صواعق

وأنفاسهن الزافرات حديد

---

(١) جمع قبة.

(٢) جمع مهاة وهى فى الأصل البللورة التى تبص لشدة بياضها أو الدرة ثم اطلقت على بقرة الوحش على التشبيه لبياضها ثم هم يشبهون المرأة بالمهاة فى البياض يعنون البللورة أو الدرة وإذا شبهت بها فى العينين فإنما يعنى بها البقرة يقول كما ترخى القباب على النساء.

(٣) الصبير السحاب الأبيض.

(٤) راياتها.

(٥) القنان جمع قنة وهى أعلى الجبل والربود جمع ربد بفتح الراء الحرف الناتئ من الجبل.

لهـا شـعل فـوق الغـمـار[١] كـأنـهـا
دمـاء تلقـتـهـا مـلاحف سـود
تعـانـق مـوج البـحـر حـتـى كـأنه
سليط له فـيـه الذبال عـتـيـد[٢]
ترى المـاء فـيـهـا وهو قـان عـبـابه
كـمـا باشـرت ردع الخَلوق جلود[٣]
فـلـيس لـهـا إلا الرياح أعـنـة
وليس لـهـا إلا الحـبـاب كـديد[٤]
وغـيـرُ المَـذاكي نجـرها[٥] غـيـر أنها
مـسـومـة تحت الـفـوارس قـود
رحـيـبـة مـد البـاع وهي نـتـيـجـة
بغير شوى[٦] عـذراء وهـي ولود[٧]
تكـبـرن عن نـقع[٨] يثـار كـأنهـا
موال[٩] وجـرد الصـافنات عـبـيـد

(١) الغمار جمع غمر الماء الكثير.
(٢) السليط الزيت والذبال الفتائل وعتيد معد حاضر.
(٣) الخلوق الزعفران والردع اللطخ بالزعفران وقان اى احمر والمعنى ظاهر.
(٤) الكديد تراب حلبة الخيل.
(٥) يقول ليست من الخيل لأن المذاكي الخيل والنجر الاصل.
(٦) يقول أنها رحيبة مد الباع مع أنها من غير قوائم فالشوى قوائم الفرس.
(٧) عذراء لأنهـا لم تركب قبل وولود لأنهـا تحمل ناسًا فكأن الجنود فيهـا أولادها وهذا من قول مسلم بن الوليد.

كـشـفت اهاويل الدجى عن مـهـولة بجـارية مـحـمـولة حـامـل بكر

(٨) غبار.
(٩) المولى السيد.

لهـا من شـفـوق العـبـقـرى مـلابس[١]
مفوفة[٢] فـيـهـا النضـار جـسـيـد[٣]
كـمـا اشتـملت فـوق الارائك خـرد[٤]
أو التـفـعـت فـوق المنـابر صـيـد[٥]
لبـوس تـكف المـوج وهو غـطامط[٦]
وتـدرأ بـاس اليم وهـو شـديـد
فـمنه دروع فـوقـهـا وجـواشن[٧]
ومنهـا خـفـاتين[٨] لـهـا وبـرود

وإنا لفى ذلك إذ رأينـا قلورية من بر الأرض الكبـيـرة عن يمـيـننا، وبر جـزيرة صقلية عن يسارنا، ثم دخلنا المجاز الذى بينهما، فرأينا بحراً صعبًا ينصب انصباب العرم، ويغلى غليان المرجل، لشـدة انحصاره وانضغاطه، فاستمـر مركبنا فى سيره والريح الجنوبيـة تسوقه سـوقًا عنيفًـا، فلما شارفـنا مدينة ريو (Reggio) وقد كـان الليل مظلمًـا ربوض النواحى ضـربت فى وجـوهنا ريح انكصـتنا علـى الأعقـاب، وحالت بين الأبصار والارتقاب، وتتـابعت علينا عوارض ديم صرنا منها ومن الليل والبحـر فى ثلاث ظلم، وعبـاب البحـر تتوالى صـدماته، وتطفـر الألباب رجـفاته،

(١) الشفوف جمع شف وهو الثوب الرقيق والعبقر موضع تزعم العرب أنه فى أرض الجن قالوا: وتوشى فيه البسط وغيرها ثم نسبوا إليه كل شىء تعجبوا من حذقه وجودة صنعته وقوته ويقال: ثياب عبقرية من هذا.
(٢) مفوفة فيها خيوط بيض.
(٣) النضار الذهب والجسيد الدم.
١٤) جمع خريدة وهى من النساء البكر التى لم تمس أو الحية الطويلة السكوت الخافضة الصوت الخفرة.
(٥) ملوك.
(٦) أى عظيم ـ كثير الماء.
(٧) الجواشن القمصان.
(٨) نوع من الثياب.

فقطعنا هذه الليلة البهماء فى مقاساة أهوال تجعل الولدان شيبا[١] ثم تداركنا صنع الله مع السحر، ففترت الريح، ولان متن البحر وجاءت ريح رخاء زجت المركب تزجية حسنة إلى مدينة ريو.

وكان ذلك فى فجر اليوم التاسع ليوم انفصالنا عن الاسكندرية، وما أرسى المركب على هذه المدينة حتى أقلع عنها كيلا يحسه اسطول العبيديين ويثأر منه، وذلك فيما علمت أن المركب الأندلسى كان قد تحرش وهو ذاهب إلى بلاد المشرق بمركب للمعز فيه كتب ورسائل ـ فقطع عليه المركب الأندلسى وأخذه بما فيه[٢] فتملكنا الذعر لذلك الخبر، ونزت قلوبنا خوفا على أنفسنا ـ ومن ثم اعتزمت أن أنزل من هذا المركب على أقرب بلد يرسى عليه، وكذلك نزلت منه عند إرسائه على هذه المدينة وحمدت الله الذى لا يحمد على المحبوب والمكروه سواه.

* * *

بَيدَ أنى ما انفصلت عن المركب حتى انفصل عنى قلبى وسار مع من فيه وأصبحت على حد قول القائل:

هواى مع الركب اليمانين مُصعدٌ
جنيب وجثمانى بمكة موثق

ذاك انفصالى عن فضل المدينة التى هى مَراد السمع ومرتع النفس وربيع القلب ومجال الهوى ومسلاة الكئيب وأنس الوحيد وزاد الراكب، ولا بدع فهناك الجمال الرائع والظرف البارع والشباب البض، والأدب الغض، ورقة الحاشية، وخفة الناحية، وعذوبة المعاشرة، وحلاوة المحاضرة:

---

(١) ابن جبير.
(٢) ابن خلدون.

وحـديثـهـا الســحـر الحـلال لو أنه
لم يجـن قـتـل المـسلم المـتـحـرز
إن طال لـم يمـلل وإن هـي أوجـــزت
ود المـــحـــدَّث أنهـــا لم تـوجـز
شـرك العـقـول ونزهـة مـا مـثلهـا
للمـطمـئن وعـقلة المـســتـوفـز

* * *

فكـأن لفـظ حـــديثـــهـــا قطـع الرياض كـســين زهرا
وكـــأن تـحت لـســانـهـــا هاروتَ ينـفثُ فـيـه سـحـرا
حـــــوراء إن نـظـرت إلـيـ ـك سـقـتك بالعـينين خـمـرا
تنـسى الـغـــويّ مـــعـــاده وتكـون للـحكـمـــاء ذكـــرا

* * *

وقف الهـوى بى حيث أنت فـليس لى
مـــتـــأخـــر عنه ولا مـــتـــقـــدمُ
أجـــد المـــلامـــة فى هواك لـذيذة
حـــبـــبـــا لـذكـــرك فـليلمـنى الـلُّوَّمُ

* * *

وما أنس من الأشياء لا أنس صوتها العذب الذى كأنه مجاج النحل، وغناءها الحبيب إلى النفوس حتى كأنها خلقت من كل قلب، فهى تغنى لكلِّ ما أحب، ولقد كان يخيل إلينا وهى تغنينا فى المركب أنَّا فى الفردوس يطربنا نبى الله داود.

إذا هى غـنت أبهت الـناس حـسنُهـا
وأطرق اجـــلالا لهـــا كل حـــاذق

* * *

غنت فلم تبق فيَّ جارحة ... إلا تمنت بأنها أذن

* * *

تغنى كأنها لا تغنى ... من سكون الأوصال وهى تجيد
مد فى شأو صوتها نفس كا ... ف كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه ... ويراه الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طورا ويحيى فى ... مستلذ بسيطه والنشيد
فى هوى مثلها يخف حليم ... راجح حلمه ويغوى رشيد
خلقت فتنة غناء وحسنا ... ما لها فيهما جميعًا نديد

* * *

وأين لا أين مزهرها الذى كأن صوته صرير باب الجنة والذى كانت إذا تناولته لتضرب على أوتاره فكأنما تنتظم قلوبنا لتضرب على أوتارها، وهكذا هكذا فليكن الغناء وسماعه، وهل خلقت الأغانى، لعمر إلهك إلا للغوانى! وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهى أن تقبله، وبين أن تسمعه من فم تشتهى أن تشيح بوجهك عنه! وأيهما أملح وأجمل ـ أن يغنيك فحل ملتف اللحية وشيخ منخلع الأسنان متغضن الوجه ـ أو تغنيك غانية كطاقة نرجس أو آس، وكأنها حورية أبقتْ من رضوان، خازن الجنان، فآه من جمالها وآه من حديثها وآه من غنائها وآه من مزهرها، ولكن نزلت ريو وفارقتنى فضل، ولله الأمر من بعد ومن قبل:

يا وحشتا فى البلد النْـ ... ـنَازح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا ... بالعيش من بعده ولا انتفعا
يقول فى نأيه وغربته ... عدل من الله كل ما صنعا

* * *

وهذه ريو هى مدينة عظيمة من مدائن جزيرة قلورية من بر الأرض الكبيرة، واقعة على مجاز مسينى، بينها وبين مسينى نحو من عشرة أميال، وبها مسجد كبير

بناه فى وسطها أبو الغنائم الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى والى صقلية كان من قبل المنصور العبيدى بعد أن اكتسح بلاد قلورية جميعًا وتغلغل فى أحشائها وشيد بها المعاقل والحصون وأرغم أنوف أهليها من الروم، وذلك فيما بلغنى أن الانبرور[1] صاحب القسطنطينية كان قد أرسل سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة بطريقا فى البحر فى جيش عرمرم إلى جزيرة صقلية فأرسل الحسن إلى المنصور العبيدى يعرفه الحال فأرسل إليه اسطولا فيه سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف راجل سوى البحرية، وجمع الحسن إليهم جمعًا كثيراً وسار من بلرم قصبة صقلية فى البر والبحر فوصل إلى مسينى وعبرت العساكر الإسلامية إلى ريو هذه وبث الحسن سراياه فى أرض قلورية ونزل هو على بلد يسمى جراجة وحاصرها أشد حصار حتى أشرف أهلوها على الهلاك من شدة العطش، وإنه لفى ذلك إذ وصله الخبر أن الروم قد زحفوا إليه فصالح أهل جراجة على مال أخذه منهم وسار إلى لقاء الروم ففروا من غير حرب إلى مدينة تدعى بارة ونزل الحسن على قلعة تعرف بقلعة قسانة وبث سراياه إلى قلورية وأقام عليها شهراً فسألوه الصلح فصالحهم على مال أخذه منهم ودخل الشتاء فرجع الجيش إلى مسينى وشتى الاسطول بها، فأرسل إليه المنصور يأمره بالرجوع إلى قلورية فسار الحسن وعبر المجاز إلى جراجة فالتقى المسلمون والروم يوم عرفة سنة أربعين وثلاثمائة فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس فانهزمت الروم وركب المسلمون اكتافهم إلى الليل وغنموا أثقالهم وسلاحهم ودوابهم ثم دخلت سنة إحدى وأربعين فقصد الحسن جراجة فحصرها فأرسل إليه الانبرور يطلب منه الهدنة فهادنه وعاد الحسن إلى ريو وبنى بها مسجداً كبيراً فى وسطها وشرط على الروم أنهم لا يمنعون المسلمين من عمارته وإقامة الصلاة فيه والأذان وأن لا يدخله نصرانى ومن دخله من الاسارى المسلمين فهو

(١) الامبراطور.

آمن سواء كان مرتداً أو مقيمًا على دينه وإن أخرجوا حجراً منه هدمت كنائسهم كلها بصقلية وافريقية فوفى الروم بهذه الشروط كلها ذلة وصغارا[١].

* * *

أما قلورية فهى جزيرة كبيرة داخلة فى البحر مستطيلة شرقى جزيرة صقلية وأهلها افرنج ولها بلاد كثيرة وأرض واسعة ينسب إليها فيما أحسب أبو العباس القلّورى حدث عنه أبو داود السجستانى فى سننه[٢] وقد غزى المسلمون أزمان بنى الأغلب هذه الجزيرة وأرض انكبردة «لومبارديه» وامعنوا فيهما واستولوا على مدينة بارة[٣] الواقعة على جون البنادقين[٤] أيام قارله[٥] انبرور الفرنج، وكذلك استولوا على مدينة طارنت من أرض أنكَبُرْدَة ومدينة ملف وقلعة قسانه وبلدانا أخرى، وقرعوا أبواب رومة العظيمة، وغنموا منها غنائم لا يستقام لها قيمة[٦] وضربوا الجزية على البابا عظيم النصرانية ـ وذلك عدا أنهم فتحوا مدينة جنوة الواقعة على خليج الجنويين وأكثر جزائر هذا البحر الرومى ـ وجملة القول أن المسلمين أثخنوا فى بلاد الأرض الكبيرة وألحوا فى قهرها، وغلبوا أممها على أمرها، وضربت اساطيلهم بجزائر هذا البحر ضراء الضياغم بفرائسها، وأديل لهم بها من املاكها[٧] واناسها، وذلك كله بما قوى عزائمهم من الحق واليقين، وألف بين قلوبهم من وشائج هذا الدين وبما ألجأتهم إليه الحال، وامتلاكهم لسيف[٧]

---

(١) ابن الاثير.

(٢) معجم البلدان.

(٣) جاء فى دائرة معارف البستانى ما يأتى: هى مدينة فى ايطاليا على شبه جزيرة صغيرة فى بحر ادرياتيك ـ إلى أن قال: وفى عهد شارلمان كانت بارة أكبر حصن للعرب على هذا البحر.

(٤) بحر الادرياتيك.

(٥) هو شارلمان وانبرور أى امبراطور.

(٦) لا تقدر قيمتها نفاسة.

(٧) ملوكها.

(٨) السيف ساحل البحر والجمع اسياف.

هذا البحر الـجم الأهوال، مما احكمهم وأشغفهم بحبه، وجعل لهم دربة بركوبه وحربه، واغراهم بانشاء الاساطيل فيه ينقضون بها على جزائره التى يخطئها العد والاحصاء وعلى عُدوته الشمالية[1] وهى أمنع من العقاب فى أجواز الفضاء، وعلى أهلها من أمم فرنجة وهى أعز وأبعد منالا، وإن كان للمسلمين:

شرف ينطح السماك بروقيه ... وعز يقلقل الاجبالا

وهم البحر ذو الغوارب إلا ... أنه صار عند بحرك آلا

* * *

وقد كان المسلمون فى الصدر الأول يتحاشون ركوب البحر حتى كان من عمر بن الخطاب لما كتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر يستوصفه البحر فكتب إليه عمرو فيما كتب: إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف، دود على عود ـ أن أوعز بمنع المسلمين من ركوبه فتحرجوا منه وعبروا على ذلك حينا من الدهر، حتى إذا كان لعهد معاوية أذن فى ركوب اثباجه، والجهاد على متون امواجه وذلك لأن العرب لبداوتهم لم يكن لهم مران عليه وحذق بركوبه بينما الروم والفرنجة لممارستهم احواله ومرباهم فى التقلب على اعواده للحرب والاتجار مرنوا عليه واحكموا الدربة بثقافته والحرب فى أساطيله حتى كان من ذلك أن أغار الروم من العدوة الشمالية على أفريقية من العدوة الجنوبية والقوط على المغرب منها ـ اجازوا فى الاساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة، وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومه ويبعث الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد ـ فكان ذلك ديدن أهل هذا البحر الساكنين حفافيه فى القديم والحديث فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم الاعاجم خولا لهم

(١) سواحل أوربا الجنوبية.

وتحت أيديهم ومت إليهم كل ذى صنعة بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، شرهوا إلى الجهاد فيه فأنشأوا السفن والاساطيل وشحنوها بالرجال والسلاح وامطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من هذه الأمم الحمراء، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس، فاوعز عبد الملك بن مروان إلى حسان بن النعمان عامل أفريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصًا على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله بن الأغلب كما سيمر بك، ثم تسلسل الأمر حتى بلغ شأن الاساطيل عند العبيديين أصحاب أفريقية وعند بنى أمية بالأندلس مبلغًا غلبوا معه على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه وصار لا قبل لامم النصرانية باساطيلهم به وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل منه مثل أقريطش وصقلية وقبرص ومالطة وقوصرة وسردانية وميورقة ومنورقة ويابسة[١] كما سيمر بك، إن شاء الله.

* * *

ولقد كان من أجل عناية العبيديين وبنى أمية بشأن الأساطيل وتفوقهم فى ذلك على سائر الممالك الإسلامية للسبب الذى قدمناه وهو وجودهم على ضفاف هذا البحر ـ أن انبعثت قرائح الشعراء فى الاندلس وأفريقية بالقول فى وصف الاساطيل، واختص أدباء هذين القطرين بهذا الباب من الوصف حتى لا تكاد تجد لشعراء المشرق يدًا فيه ـ ومن أحسن ما سمعناه لشعراء المغرب فى الأسطول دالية أبى القاسم محمد بن هانئ الشاعر الأندلسى المنقطع الآن للمعز العبيدى

(١) ابن خلدون.

وقد تقدمت فى صدر هذه الرسالة، ورثاية على بن محمد الايادى التونسى شاعر القائم العبيدى وهى دون الدالية، وفيها يقول:

شرجوا جوانبه مجاذف أتعبت
شأو الرياح لها ولما تتعب
تنصاع من كثب كما نفر القطا
طوراً وتجتمع اجتماع الربرب
والبحر يجمع بينها فكأنه
ليل يقرب عقربًا من عقرب
وعلى كواكبها أسود خلافة
تختال فى عدد السلاح المذهب
فكأنما البحر استعار بزيهم
ثوب الجمال من الربيع المعجب

ومنها فى وصف الشراع:

ولها جناح يستعار يطيرها
طوع الرياح كراحة المستطرب
يعلو بها حدب العباب مطارة
فى كل لج زاخر مغلولب
يسمو بأجرد فى الهواء متوج
عريان منسوج الذؤابة شوذب[1]
يتنزل الملاح منه ذؤابة
لو رام يركبها القطا لم يركب

(١) طويل.

فكأنما رام استراقة مقعد
للسمع إلا أنه لم يشهب
وكأنما جن ابن داود هُمُ
ركبوا جوانبها بأعنف مركب
سجروا جواحم نارها فتقاذفوا
منها بألسن مارج متلهب
من كل مسجور الحريق إذا انبرى
من سجنه انصلت انصلات الكوكب
عريان يقذفه الدخان كأنه
صبح يكر على الظلام الغيهب

إلى أن قال:

ولواحق مثل الأهلة جنح
لحق المطالب فائتات المهرب
يذهبن فيما بينهن لطافة
ويجئن فعل الطائر المتقلب
كنضانض الحيات رحن لواعبًا
حتى يقعن ببرك ماء الميزب

«وبعد» فإن لشعراء المغرب من بارع القصيد فى هذا الباب ما لا يحصى كثرة، وما ينم عن عظمة الاساطيل عند الدول الإسلامية وبلوغها لديهم الشأو الذى لا يلحق حتى وصل المسلمون إلى ما وصلوا إليه من الصولة واتساع الملك وضخامة السلطان.

* * *

ومن هنا تعرف مكان الأساطيل من الدول ولا سيما دول البحار مثل الدول الإسلامية لعهدنا، وأن الاسطول هو سياجه الدولة وعمادها، وبه عزها وعليه بعد الله اعتمادها، بل هو درعها المسردة التى تتقى بها سهام الاعداء وتحول وسلاحها الذى تطول به فى البحر وتصول، وجناحها الذى تطير به فى سماء المجد وتجول، وإن دولة لم تعن العناية كلها بالأساطيل، وترسلها على متن هذا البحر طيراً أبابيل، هى لعمرى دولة مقصوصة الجناح، وكالأعزل يقتحم الهيجاء بغير سلاح.

وما خير كف أمسك الغُل اختها
وما خير سيف لم يؤيد بقائم

* * *

ولما نزلت على ريو أخذت سمتى إلى مسجدها الجامع لأصلى فيه صلاة الصبح وأثلج صدرى ببرد التقى وشعائر الإسلام، وأجلو بعضا من وعثاء السفر الزؤام، وما زلت حتى أخذت عينى بناء شاهقا تعتم مأذنته بالعماء، كأنما تبث حديثًا إلى ملائكة الله فى السماء، أو كأنها تعلن برفعتها رفعة الإسلام، وعزة أهله على عبَد الطاغوت والاصنام، وكذلك رأيت كل من مر بهذا المسجد من الروم أغضى من مهابته ذلة وصغارا، وإجلالا لدين الله واكبارا، مما ألقاه فى قلوبهم من الرعب واختشاء المسلمين أبو الغنائم الحسن بن على، رحمه الله.

* * *

ولما توسطت باحة المسجد رأيت صفوف المصلين من الرجال وإمامهم فى المحراب، كسطور أمامها عنوان الكتاب، وخلف الرجال حاجز من خشب يليه صفوف المصليات من النسوان، كما تكون هوامش الصفحة يفصلها من سائرها أحمر من المداد قان، فانضممت إلى صفوف المصلين، وصليت معهم صلاة

الصبح، ولما أن سلم الإمام وكان قائداً من قواد العرب فى هذه البلاد ـ وكذلك كان أئمة المسلمين فى الحروب والسياسات، أئمة لهم فى التقى والصلوات، قام واتكأ على سيفه وقال[١]:

أيها العرب أنتم الآن بين ظهرانَىْ عدو يلنْدَد[٢] يتجرع منكم الغُصص، ويتحين بكم الفرص، ويود لو يبدلنكم الله ضعفًا من قوة، وضنا بنفوسكم من فتوة[٣] وهزيمة من ظفر، واستحالة لصفوكم إلى كدر، فيثب بكم وثبة الغضنفر نال منه الجوع والسّعار[٤] ويسعُل بكم كما يسعل هذا البركان فيرمى بحممه والشرار، فإذا فترت منكم الهمم، ووهت العزائم، وأغمدتم السيوف فى الأجفان، وقعدتم عن نصر الله فى كل آونة وكل مكان، وسكنتم إلى الترف والنعيم وجرتم معاذ الله عن النهج القويم، ودب إليكم ما قد دب إلى هذه الأمم الحمراء، من الحسد والبغضاء، فإنكم صائرون لا محالة إلى ما قد صاروا إليه، وإذ ذاك يُصيركم الله بعد نصركم، فَلاّ[٥] ويديل من عِزكم ذُلا، ومن كُثركم قُلاّ، وتيئضون بعدُ على هذا العالم كلاّ[٦].

* * *

وبعد أن فرغ من كلامه خرج وخرج معه رجاله وعلوا متون الجياد وذهبوا إلى حيث يعلون كلمة الدين، ويذيعون التقى والحق واليقين، وينسفون دعائم الشرك والإلحاد، ويفكون أغلال الظلم من رقاب العباد.

مستمسكين بحق قائمين به إذا تلون أهل الجور ألوانا

---

(١) هذه الخطبة من وضعنا، وإنما نقصد تصوير ذلك العصر من جميع جوانبه.
(٢) ألد شديد الخصومة.
(٣) بذل وكرم والمراد كما هو ظاهر بذل النفس.
(٤) شدة العطش.
(٥) منهزمين.
(٦) عالة وثقلا.

ولما أن قضيت صلاتى خرجت من المسجد وقصدت إلى مرسى السفين فوجدت ثمت مركبًا يريد أن يعبر إلى جزيرة صقلية فنزلته ثم أقلع وعبر بنا إلى مدينة مسينى إحدى مدائن هذه الجزيرة، وأرسى فيها على مرسى عجيب يأخذ بالألباب، وذلك أن أكبر ما يكون من السفن يرسى من الشاطئ بحيث يتناول ما فيها من البر بالأيدى[1].

* * *

وقبل أن نسترسل فى القول على مدينة مسينى وسائر البلدان التى مررت بها فى هذه الجزيرة العجيبة نذكر لك شيئًا من تقويمها وتاريخها حتى تكون على بينة من أمرها إن شاء الله.

صقلـــية :

هى جزيرة فى البحر كبيرة على شكل مثلث متساوى الساقين، زاويته الحادة من غربى الجزيرة، بينها وبين ريو وبلاد قلورية من بر الأرض الكبيرة مجاز مسينى حيث يترواح البحر بين ستة أميال وعشرة أميال، وبين ذنبها الغربى وبين تونس نيف وستون ميلا، وزاويتها الجنوبية تقابل بر طرابلس من أفريقية، وبالقرب من زاويتها الشمالية جزيرة صغيرة فيها بركان النار الذى لا يعلم فى العالم أشنع منظرا منه، وهذا بركان اسم لجبلين أحدهما هذا والثانى فى صقلية نفسها فى أرض خفيفة التربة كثيرة الكهوف ولا يزال يصعد من ذلك الجبل لهب النار تارة والدخان أخرى، ومن ثم كانت كثيرة الزلازل بحيث يكثر تهدم أبنيتها منها، وسيمر بك قريبًا قول ضافٍ فى هذا المعنى.

* * *

(١) نزهة المشتاق.

وقد كانت هـذه الجزيرة قبل الفتح خـاملة قليلة العمارة وكانت مـن عمالات الروم وأمرها راجع إلى الانبرور صـاحب قسطنطينية، وكان عليـها وال من قبل هذا الانبرور يسمى قسطنطين، وكانت أفريقية[1] تحت ولاية زيادة الله بن الأغلب، كان واليا عليها من قـبل المأمون ابن هارون الرشيد فلما كانت سنة ثنتى عـشرة ومائتين استعمل الانبرور على الاسطول قائدا روميا يسمى فيمى، وكان حازمًا شجاعًا، فغزا سواحل أفريقية وعبث فيها وبقى هناك مدة وبعد ذلك كتب الانبرور إلى قسطنطين يأمـره بالقبض على فـيمى وتعـذيبه، فنمى الخـبر إلى فـيمى فـانتقض وتعـصب له أصحابه وسار إلى مدينة سرقوسة إحدى مدائن صقلية فملكها فسار إليه قسطنطين فالتقوا واقتتلوا فانهزم قسطنطين إلى مدينة قطانية فسير إليه فيمى جيشًا فقبضوا عليه وقتلوه واستولـى فيمى على صقلية وخوطب بالملك وولى على ناحـية من الجزيرة رجلا اسمه بلاطة فاتفق بلاطة هو وابن عم له يسـمى ميخائيل كـان واليا على بلزم وجمـعا عسكرا كـثيراً وقـاتلا فيمى فـانهزم فيـمى وركب فى أسطوله إلى أفريقـية مستنجدا بزيادة الله بن الأغلب فسير معه أسطولاً عظيمًا فى تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل واستعمل عليهم أسد بن الفرات ـ قاضى القيروان ومن أصحابه مالك رضي الله عنه وهو مـصنف الأسدية فى الفـقه على مـذهب مالك ـ وأقلعـوا من سـوسة[2] فوصلوا إلى مـدينة مأزر من صـقلية وسـاروا إلى بلاطة الذى قاتل فيـمى فهـزموه والرومَ الذين مـعـه وغنمـوا أمـوالهم وهرب بـلاطة إلى قلورية فـقـتل واسـتـولى المـسلمـون على عـدة حـصـون مـن الجـزيرة وجـرت وقـائع كـثيـرة بين الروم والمسلمـين امتدت سـنين طوالا وانتهت باسـتيلاء المسلمـين على جمـيع جزيرة صـقلية ـ وبقـيت صـقليـة بيد بنى الأغلب يـتناوبها عـمـالهم إلى أن أدال الله منهم

(١) تونس والجزائر وطرابلس الغرب.

(٢) هى الآن من أعمال ولاية تونس واقعة على البحر الأبيض المتوسط على مسافة ١١٠ كيلو مترا من تونس إلى الجنوب الشرقي.

للعبيديين ودانت لعبيد الله المهدى أفريقية وما إليها فأخذوا يبعثون عمالهم عليها إلى أن كانت فتنة أبى يزيد[١] وشغل أبى القاسم القائم والمنصور العبيدى من بعده بأمره ـ فلما انقضت فتنة أبى يزيد عقد المنصور على صقلية لأبى الغنائم الحسن بن أبى الحسين بن على الكلبى ـ وكان له فى الدولة محل كبير وفى مدافعة أبى يزيد غَناء عظيم ـ فمهد الأمور للعبيديين وغزا بلاد قلورية وأقام واليا على صقلية وما إليها إلى أن استأثر الله بالمنصور وقام بالأمر من بعده ولده المعز

(١) أبو يزيد الخارجى هو رجل من زناته واسم والده كيداد من مدينة تورز من بلاد قسطيلية بافريقية فولد له ابو يزيد بتورز من جارية سوداء ونشأ إبو يزيد فى توزر وتعلم القرآن وسار إلى تاهرت وصار على مذهب اتلنكارية وهو تكفير أهل الملة واستباحة أموالهم ودمائهم والخروج على السلطان ثم أخذ نفسه بالحسبة على الناس وتغيير المنكر سنة ست عشر وثلاثمائة ودعا أهل تلك البلاد فأطاعوه وكثر جمعه فى أيام القائم ابن المهدى فحصر قسطيلية ثم فتح تبسه ثم سبيبة وصلب عاملها ثم فتح الاربس فأخرج القائم جيوشا لحفظ رقادة والقيروان فهزمهم أو يزيد واستولى على تونس ثم على القيروان ورقاده ثم سار أبو يزيد إلى القائم فجهز إليه القائم جيشًا فجاى بينهم قتال كثير وأخيراً انهزمت جيوش القائم فسار أبو يزيد وحصر القائم بالمهدية وضايقها وغلا بها السعر وعدم القوت ولم يزل حتى رحل عنها ورجع إلى القيروان وفى أثناء ذلك توفى القائم وملك ابنه المنصور فجهز المنصور العساكر وسار بنفسه إلى القيروان واستعادها من أبى يزيد وانهزمت عساكر الخارجى وسار المنصور فى أثره فأدركه على مدينة باغاية فهرب الخارجى من موضع إلى آخر حتى وصل طبنة وهرب حتى وصل إلى جبل للبرب يسمى برزال والمنصور فى أثره واشتد على عسكر المنصور الحال فرجع المنصور إلى بلاد صنهاجه وبلغ إلى موضع يسمى قرية عمره واتصل به هناك الأمير زيرى الصنهاجى وهو جد ملوك بنى باديس فاكرمه المنصور غاية الاكرام ثم رحل إلى المسيلة وكان قد اجتمع إلى أبى يزيد جمع من البربر وسبق المنصور إلى المسيلة فلما قدم المنصور إليها هرب عنها أبو يزيد إلى جهة بلاد السودان فاقتفى المنصور أثره حتى قابله فاقتتلوا فانهزم أبو يزيد وأخذت أثقاله فالتجأ إلى قلعة كتامة وهى منيعة فحاصرها المنصور ودوام الزحف عليها إلى أن ملكها عنوة فهرب أبو يزيد من القلعة من مكان وعر فسقط منه فأخذوه وحملوه إلى المنصور فسجد المنصور شكراً لله وكثر تكبير الناس وتهليلهم وبقى أبو يزيد فى الأسر مجروحا فمات فى المحرم سنة ست وثلاثين وثلاثمائة فسلخوا جلده وحشوه تبنا وكتب المنصور إلى سائر البلاد بالفتح وبقتل أبى يزيد وعاد إلى المهدية، وكان أبو يزيد قصيراً اعرج قبيح الصورة يلبس جبة صوف قصيرة. اهـ. ملخصا من ابن خلدون.

لدين الله أبو تميم معد فسار الحسن إليه بافريقية سنة إحدى وأربعين واستخلف على ما وراءه ابنه أبا الحسين أحمد، ولا يزال هذا الأمير أيده الله واليًا على صقلية وما إليها إلى اليوم وهو سنة خمس وأربعين وثلاثمائة ومقامه ببلزم حضرة هذه الجزيرة.

* * *

وهذه الجزيرة جدٌّ خَصيبة[١] وكلأها لا ينقطع في صيف ولا شتاء، وهي كثيرة الأمواه والعيون والفواكه والأرزاق[٢] وجبالها كلها مثمرة بالتفاح والشاه بلوط[٣] والبندق والاجاص، ومنها يجلب الجوز والقسطل إلى بلاد أفريقية ويجلب منها كثير من القطن ـ وفيها معادن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق[٤] وهي مستبحرة العمران كثيرة المدن والقرى والضياع، فقد أخبرني ثَبتٌ ثقة أن بهذه الجزيرة مائة وثلاثين بلدا[٥] بين مدينة وقلعة عدا ما فيها من الضياع والمنازل والبقاع ـ وكلها مسكونة بالمسلمين، ملأى بالمساجد والفنادق والحمامات، وفيها من العلماء والفلاسفة والأدباء، ما لا يكاد يدركه العد والإحصاء[٦] ومن مشهور مدائنها مدينة بلرم قصبة هذه الجزيرة، وسيأتي القول

(١) خصيبة جدا.

(٢) كتاب الجغرافية لابي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري.

(٣) هو المعروف في مصر بأبي فروة.

(٤) نزهة المشتاق ورحلة ابن جبير ومعجم البلدان.

(٥) معجم البلدان.

(٦) انجبت جزيرة صقلية كثيراً من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة والاطباء ممن لهم شأن في الادب العربي واكثرهم كان بعد زمن الرحلة، ولا بأس بايراد بعض مشهوريهم هنا حتى تكون هذه الرسالة وحواشيها مغنية في هذا الباب.

فمن علماء هذه الجزيرة أبو القاسم علي بن جعفر السعدي الصقلي المعروف بابن القطاع ـ قال ابن خلكان: كان أحد أئمة الأدب خصوصًا اللغة وله تصانيف نافعة منها كتاب الافعال أحسن فيه كل الاحسان وهو أجود من الأفعال لابن القوطية وإن كان ذلك قد سبقه إليه، وله كتاب ابنية الأسماء جمع فيه فاوعى وفيه دلالة على كثرة اطلاعه وله عروض حسن جيد،

وكتاب الدرة الخطيرة فى المختار من شعر شعراء الجزيرة (أى شعراء جزيرة صقلية) وكتاب لملح الملح جمع فيه خلقا من شعراء الأندلس ـ وكانت ولادته فى العاشر من صفر سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة بصقلية، وقرأ الأدب على فضلائها كابن عبد البر اللغوى وأمثالها وأجاد فى النحو غاية الإجادة ورحل عن صقلية لما أشرف على تملكها الإفرنج ووصل إلى مصر فى حدود سنة خمسمائة وبالغ أهل مصر فى إكرامه ـ ومن شعره فى ألثغ:

وشادن فى لسانه عقد ... حلت عقودى واوهنت جلدى
عابوه جهلا بها فقلت لهم ... أما سمعتم بالنفث فى العقد

وله من قصيدة:

فلا تنفذن العمر فى طلب الصبا ... ولا تشقين يوما بسعدى ولا نعم
ولا تندبن اطلال مية بالـلوى ... ولا تسفحن ماء الشئون على رسم
فإن قصارى المرء ادراك حاجة ... وتبقى مذمات الأحاديث والاثم

إلى آخر ما قال، وتوفى بمصر فى صفر سنة خمس عشرة وخمسمائة.

ومن علماء صقلية أبو عبد الله محمد بن أبى محمد بن ظفر الصقلى المنعوت بحجة الدين، قال ابن خلكان: صاحب التصانيف الممتعة ككتاب سلوان المطاع فى عدوان الاتباع، صنفه لبعض القواد بصقلية سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وخير البشر بخير البشر وكتاب الينبوع فى تفسير القرآن الكريم وكتاب نجباء الأبناء وشرح المقامات للحريرى وهما شرحان كبير وصغير.

ويروى له شعر فمن ذلك قوله:

حملتك فى قلبى فهل أنت عالم ... بأنك محمول وأنت مقيم
ألا إن شخصًا فى فؤادى محله ... وأشتاقه شخص علىّ كريم

إلى أن قال ـ وكانت نشأته بمكة وتنقل فى البلاد ومولده بصقلية وسكن آخر الوقت بمدينة حماة وتوفى بها سنة خمس وستين وخمسمائة.

ومن علمائها أبو عبد الله المازرى وسيأتى القول عليه.

ومنهم أبو بكر محمد بن سابق الصقلى، قال ابن بشكوال فى الصلة: كان من أهل الكلام مائلا إليه قدم الأندلس وأخذ عنه أهل غرناطة وتوفى بمصر سنة ثلاث وتسعين واربعمائة.

والقاضى الرشيد أحمد بن قاسم الصقلى قال العماد: طرأ على مصر وكان قاضى قضاتها فى أيام الأفضل: قال: دخل يومًا على الأفضل وبين يديه دواة من عاج محلاة بمرجان فقال:

ألين لداود الحديد بقدرة ... يقدره فى السرد كيف يريد
ولان لك المرجان وهو حجارة ... على أنه صعب المرام شديد

وأبو الفضل العباس بن عمرو الصقلى قال فى جذوة المقتبس كان بالاندلس وروى الحديث هناك.

والفقيه أبو موسى عيسى بن عبد المنعم الصقلي قال العماد: كان كبير الشان، ذا الحجة والبرهان، إلى أن قال: ومن بديع قوله في الغزل، وهو أحلى من نجع الأمل:

يا بني الاصفر أنتم بدمي ... منكم القاتل لي والمستبيح
أمليح هجر من يهواكم ... وحلال ذاك في دين المسيح
يا عليل الطرف من غير ضنى ... وإذا لاحظ قلبًا فصحيح
كل شيء بعدما أبصرتكم ... من صنوف الحسن في عيني قبيح

وولده الفقيه أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد المنعم الصقلي قال العماد: كاتب شاعر، بارع ماهر، مهندس منجم، لغارب الفصاحة متسم، وفي ملتقى أولي العلم كمي معلم، إلى آخر ما هنالك، وقال صاحب طبقات الحكماء، هو من أهل العلم بعلم الهندسة والنجوم ماهر فيهما قيم بهما مذكور بين الحكماء هناك ومن شعره:

كتمت الذي بي فانتفعت بكتماني
وأعلنت حالي فاتهمت باعلاني
وما خلت أن الأمر يفضي إلى الذي
رأيت ولكن كل شيء يرى فاني

ومنه:

أنا والله عاشق لك حتى ... ليس لي عنك يا مني النفس صبر
وحياتي إن تم لي منك وصل ... ومماتي إن دام لي منك هجر

«وأبو عبد الله هذا هو غير أبي عبد الله الصقلي الفيلسوف المذكور في الرحلة».

ومنهم أبو الحسن علي بن حمزة الصقلي قال في جذوة المقتبس: دخل الأندلس قبل الأربعين واربعمائة وكان يتكلم في فنون ويشارك في علوم إلى آخر ما قال.

والفقيه أبو محمد بن صمنة الصقلي ذكره العماد في الخريدة.

ومن أطباء صقليه أبو سعيد بن إبراهيم الصقلي صاحب كتاب المنجح في التداوي من صنوف الأمراض والشكاوى.

وأحمد بن عبد السلام الشريف الصقلي صاحب كتاب الأطباء في الأمراض من الفرق إلى القدم ذكرهما صاحب كشف الظنون.

ومن فلاسفتها أبو عبد الله الصقلي الآتي ذكره في الرحلة وأبو عبد الله المتقدم ذكره وأبو حفص عمر بن الحسن بن القوني الكاتب ذكره العماد وقال: إنه شاعر كاتب منجم مهندس.

ومن ادبائها الشاعر الكبير ابن حمديس قال ابن بسام: هو شاعر ماهر يقرطس اغراض المعاني البديعة، ويعبر عنها بالألفاظ النفيسة الرفيعة، ويتصرف في التشبيه المصيب، ويغوص في بحر الكلم على در المعنى الغريب، فمن معانيه البديعة قوله في صفة نهر:

ومطرد الاجزاء يصقل متنه ... صبا أعلنت للعين ما في ضميره

= جـريـح بأطراف الحصى كلمـا جرى عليـهـا شكا أوجـاعـه بـخـريره
كـأن جـبـانا ربع تحت حـبـابه فـاقـبل يـلقى نفـسـه فـى غـديره
كـأن الدجى خط الـمـجـرة بيننا وقـد كللت حـافـاته بيـدوره
شـربنا عـلى حـافـاته دون سكره نقـبل شكراً منه عـيـنى مـديره

وله من قصيدة:

بت منـهـا مـسـتـعـيـداً قـبـلا كن لى منـهـا عـلى الدهر اقـتـراح
وأروى غـلـل الـشـوق بـمـا لم يكن فى قـدرة المـاء القـراح

وأول هذه القصيدة:

قم هـاتهـا مـن كف ذات الـوشـاح فـقـد نعى الليل بـشـيـر الصـبـاح
باكـر إلى اللـذات واركب لـهـا سـوابق الـلهـو ذوات المـراح
مـن قبل أن ترشف شـمـس الضـحى ريق الـغـوادى من ثـغـور الاقـاح

وكان قد دخل الأندلس سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ومدح المعتمد بن عباد فأحسن إليه وأجزل عطاياه، ولما قبض المعتمد وحبس بأغمات سمع ابن حمد يس أبياتا عملها المعتمد فى الاعتقال فقال:

أتيـأس من يـوم يـنـاقض أمـسـه
وشـهـب الـدرارى فى الـبـروج تدور
ولمـا رحـلتـم بالنـدى فى أكـنـفـكم
وقـلـقل رضـوى منكم وثـبـيـر
رفـعت لسـانـى بالقـيـامـة قـد دنت
فـهـذى الـجـبـال الراسـيـات تـسـير

وله من أبيات المعانى الغريبة:

زادت على كـحل العـيـون تكحـلا ويـسـم نصل الـسـهـم وهو قـتـول

وله يتشوق إلى صقلية مسقط رأسه:

ذكـرت صـقـلـيـة والهـوى يجـدد لـلنفس تـذكـارهـا
فـإن كنت أخـرجت من جنة فـإنى احـدث أخـبـارها
ولـولا ملـوحـة مـاء البكـاء حـسـبـت دمـوعى أنهـارها

ثم يقول بعد ذلك من أبيات:

ولو أن أرضـى حـرة لاتيـتـهـا
بعـزم يعـد الـسـيـر ضـربة لازب

=

= ولكن أرضى كيف لى بفكاكها
من الأسر فى أيدى العلوج الكواذب[1]

ويقول من أبيات يصف جارية له غرقت:

واوحشتا من فراق مؤنسة ... يميتنى ذكرها ويحييها
اذكرها والدموع تسبقنى ... كأننى للأسى أجاريها
جوهرة كان خاطرى صدفا ... لها أقيها به وأحميها
يا بحر ارخصت غير مكترث ... من كنت للمبتاع أغليها
أبتها فى حشاك مفرقة ... وبت فى ساحليك أبكيها
ونفحة الطيب فى ذوائبها ... وصبغة الكحل فى مآقيها
عانقها الموت ثم فارقها ... عن ضمة فاض روحها فيها
ويلى من الماء والتراب ومن ... أحكام ندين حكما فيها
أماتها ذا وذاك غيرها ... كيف من العنصرين أفديها

وله يصف عوداً:

فى حجره اجوف له عنق ... نيطت بظهر تخاله حدبه
يمد كفا إليه ضاربة ... اعناق احزاننا إذا ضربه
قلت ألا فانظروا إلى عجب ... جاء بسحر فانطق الخشبه

ولـــه:

واشراك الردى فى الغيب تخفى ... كما يخفين فى ترك الحضيض
عجبت لجمعه فيهن صيداً ... حوى بين القشاعم والبعوض

وله يصف خوف القمر:

والبدر قد ذهب الخسوف بنوره
فى ليلة خسرت أواخر مدها
فكأنه مرآة قين احميت
فمشى احمرار النار فى مسودها

ومن أبيات له يصف البق والبراغيث والبعوض:

نومى على ظهر الفراش منغص ... والليل فيه زيادة لا تنقص
من عاديات كالذئاب تذاءبت ... وسرت على عجل فما تتربص
جعلت دمى خمراً تداوم شربها ... مسترخصات منه ما لا يرخص
فترى البعوض مغنيًا بربابه ... والبق تشرب والبراغيث ترقص

(١) فارق ابن حمد بن صقلية بعد أن تملك معظمها روجر النورمندى وذلك حوال سنة ٤٧١هـ وكان ابن حمد بن إذ ذاك حدثا فى منتصف العقد الثالث.

=

= وإليك أبياتا له من السهل الممتنع يصح أن يتغنى بها:

هات كـــاس الراح أو خـــذها إليك ... ينـزل اللهـــو بهـــا بين يـديك
ريقـــة العـيش بهـــا فـاخلع على ... شـفتـيهـا كل حـين شـفتـيك
وأطع فـيـهـــا نديمـيك بمـا ... حكمـا واعص غلـيـهـا عـاذليك
وإذا ســقـيت منهـا شـفـقـا ... طلعت حـمـــرته فـى وجنتـيك
وتناول نشـــوة من روضـــة ... طلعت كـالشـمس بالنجم عليك
تتـــغنى بنســـيب قلتـــه ... فـــهـــواها راجع منك إليك
فـاوضت فى الوصل عـينى عـينهـا ... فـازدهت عـجبـا وقـالت مـا لديك
أعليل أنـت مـــاذا تشـــتـــهى ... قلت قطفى بيـدى رمـــانتـــيك
فـانثنت كـبـرا وقـــالت ويلتـا ... أوهـذا كـلـه يـطـلـب ويـك
أنا شـــمس وبعـــيـــد فلكى ... وضـيـائى نـافـر مـن راحـتـيك
لـو بدا أمـــرك لـى من قـــبـل ذا ... مـــا رأت نـاظـرتـى نـاظرتـيك

وشعره كله جيد مختار ينم عن فحولته وصدق نزعته الشعرية وله ديوان شعر يوجد منه نسخة فى دار الكتب الملكية بمصر توفى سنة سبع وعشرين وخمسمائة بجزيرة ميورقة وقيل ببجاية ـ ومن ادبائها أبو العرب مصعب بن محمد بن أبى الفرات القرشى، قال العماد: ولد بصقلية سنة ثلاث وعشرين واربعمائة وخرج عنها لما تغلب الروم عليها سنة أربع وستين واربعمائة قاصداً إلى المعتمد بن عباد، وله من أبيات:

إلامَ اتبـــاعى لـلأمـــانى الكـواذب ... وهذا طريق المـجـد بادى المـذاهب
أهم ولـى عـزمـان عـزم مـشـرق ... وآخـر يـثنى هـمـتـى للمـغـارب
ولا بد أن أسـأل العـيس حـاجـة ... تشق على أخـفـافـهـا والغـوارب
علىّ لآمـــالى اضـطراب مـؤمـل ... ولكـن على الأقـدار نـجح المـطالب
فـيـنـا نفس لا تـصـحـبى الهـون إنه ... وإن خـدعت أسـبـابه شـر صـاحب
ويـا وطـنى إن بـنـت عـنى فـانـنى ... سـأوطـن أكـوار العـتـاق النجـائب
إذا كـــان أصلى من تـراب فكـلهـــا ... بلادى وكـل العـالـمـين أقـــاربى

=

«وهذا من قول ابن المعتز:

إذا كنت فى الناس ذا ثروة
فأنت المسود فى العالم
وحسبك من نسب صورة
تخبر أنك من آدم»
وما ضاق عنى فى البسيطة جانب
وإن جل إلا اعترضت منه بجانب
إذا كنت ذا هم فكن ذا عزيمة
فما غائب نال النجاح بغائب

ـ ومنهم عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبى السعدى الصقلى المعروف بالقاضى الجليس ـ قال ابن شاكر الكتبى صاحب فوات الوفيات تولى ديوان الانشاء للفائز (العلوى صاحب مصر) مع الموفق بن الخلال ـ ومن شعره:

الممت بنا والليل يزهى بلمة
دجوجية لم يكتهل بعد فؤادها
فأشرق ضوء الصبح وهو جبينها
وفاحت أزاهير الربى وهى رياها
إذا ما اجتنت من وجهها العين روضة
أسالت خلال الروض بالدمع أمواها
وإنى لأستسقى السحاب لربعها
وإن لم تكن إلا ضلوعى مأواها
إذا اشتعلت نار الأسى بين أضلعى
نضحت على حر الحشا برد ذكراها
وما بى أن يصلى الفؤاد بحرها
ويضرم لولا أن فى القلب سكناها

ومنه:

ومن عجب أن الصوارم والقنا تحيض بأيدى القوم وهى ذكور
وأعجب من ذا أنها فى اكفهم تأجج ناراً والاكف بحور

وقال: وكان ابن الحباب كبير الأنف وكان الخطيب أبو القاسم هبة الله بن البدر المعروف بابن الصياد مولعا بأنفه وهجائه وذكر أنفه فى أكثر من الف مقطوع فانتصر له ابن قادوس الشاعر فقال:

يا من يعيب أنوفنا الشمم التى ليست تعاب
الأنف خلقة ربنا وقرونك الشم اكتساب =

- مات سنة إحدى وستين وخمسمائة وقد أناف على السبعين ـ ومنهم أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن بشرون الكاتب الصقلى صاحب كتاب المختار فى النظم والنثر، لأفاضل العصر ذكره العماد وأورد له شعراً جزلا، ومنهم تاج الدولة جعفر ابن ثقة الدولة يوسف بن عبد الله ابن محمد بن الحسين القضاعى الكلبى صاحب صقلية، قال ابن خلكان كان أديبًا شاعراً ،وله الأبيات السائرة فى غلامين على أحدهما ثوب ديباج أحمر وعلى الآخر ثوب ديباج اسود وهى:

ارى بدرين قد طلعا ... على غصنين فى نسق
وفى ثوبين قد صبغا ... صباغ الخد والحدق
فهذى الشمس فى شفق ... وهذا البدر فى غسق

وكان عمله لهذه الأبيات سنة سبع وعشرين وخمسمائة ومنهم أبو عبد الله محمد بن على الصباغ الكاتب قال ابن القطاع: كان فى عهد ابن رشيق وبينهما مراسلات وله:

قومى اللذين إذا السنابك انشأت
دون السحاب سحائبًا من عثير
برقت صوارمهم وأمطرت الظبا
علقًا كثرثار الحيا المتفجر
الواترين فلا يقاد وتيرهم
والفاتكين بحمير ويقيصر
والمانعين حماهم أن يرتمى
والحاسمين لكل داء يعترى

ـ وأبو الفضل مشرف بن راشد، قال ابن القطاع القائل:

سرت ورداء الليل اسحم حالك
ولا سائر إلا النجوم الثواقب
عشية اعشوشع الدمع انسان مقلتى
ونمت بأشرار الدموع السوافك
وطاف الكرى بالطرف وهو محجب
كما طاف بالبيت المحجب ناسك
سرت موهنا ثم استقلت فودعت
بجاذبها حقف من الرمل عاتك
به غصن بان أسمر البدر طالعًا
عليه قناع من دجى الليل حالك
واحور مكحول المدامع عاقنى
عن الصبر فاستولت عليه المهالك

عليها مفصلا عند ذكر وصولنا إليها إن شاء الله، وبين مدينة بلرم هذه وبين مدينة مسينى توجد المدن الآتية واقعة على ساحل البحر غربى هذه الجزيرة وهى مدينة ثرمة وليرى وبقطش وجفلوذ والقارونية وقلعة القوارب وميلاص وجطين[١] وشنت ماركو، وبين مسينى وبلرم على سيف البحر شرقى الجزيرة وجنوبيها تقع البلدان الآتية، على الترتيب الآتى هكذا: مدينة طبرمين بشرقى مدينة مسينى على مرحلة منها ـ وهى مدينة أزلية قديمة من أشراف البلاد وأعيانها[٢] وقلعة حصينة من اصول القلاع وأركانها، وهى على جبل مطل على البحر يسمى جبل الطور[٣] وفيها كما حدثنى أبو عبد الله الصقلى الفيلسوف[٤] ملعب من ملاعب الروم القديمة كأنه شعب بوّان الذى يقول فيه أبو الطيب المتنبى:

مغانى الشِّعب طِيبا فى المغانى
بمنزلة الربيع من الزمان

= والأمير أبو محمد عمار بن المنصور الكلبى قال ابن القطاع: كان من أفاضل العلماء، وسادات الأمراء، وذويد فى الفقه والحديث وله:

تقول لقد رأيت رجال نجد ... وما ابصرت مثلك من يمان
ألفت وقائع الغمرات حتى ... كأنك من رداها فى امان
إلى كم ذا الهجوم على المنايا ... وكم هذا التعرض للطعان
فقلت لها سمعت بكل شىء ... ولم أسمع بكلبىٍّ جبان

وقال فى ابن عمه شكاية:

ظننتك سيفا انتضيك على العدى
وما خلت أنى انتضيك على نفسى
وجئتك ابغى رفعة وكرامة
فأمسيت مقهوراً بقربك فى حبس

(١) ينسب إليها على بن عبد الله الجطينى كما قال ياقوت.
(٢) نزهة المشاق.
(٣) نزهة المشتاق.
(٤) سيصفه الرحالة قريبًا.

مـــلاعب جنة لو ســـار فـــيـــهـــا
سلـيـمـــان لسـار بتـــرجـــمـــان
طبَت فـــرســـانَنا والخـــيل حـــتى
خـشـيتُ وإن كـــرمن من الحـرَان[١]
غـــدونا تنـفض الاغـــصـــان فـــيـــه
على أعـــرافـــهـــا مـــثل الجـــمـــان[٢]
فـسـرت وقـــد حـجـبن الشـــمس عنى
وجـئن من الضـيـاء بمـــا كـفـــانى[٣]
والقـى الشـــرق منـهـــا فـى ثيـــابى
دنـانيـــــراً تـفـــــر من البنـان[٤]
لهـــا ثـمـــر تشـــيـــر إليك منهـــا
بـأشـــــربـة وقـــــفـن بلا أوانـى[٥]
وامـــواه يصـل بهـــا حـــصـــاها
حـليـل الحـلى فـى أيدى الـغـــــوانـى

وقد فـتح المسلمـون هذه المدينة أيام إبراهـيم بن أحمد ابن الأغـلب ـ وكان

(١) يقول: دعت هذه المغانى لطيبها خيلنا وفرساننا إلى المقام فاستهوت قلوبنا وقلوب خيلنا حتى خشيت على خيلنا أن تقف فلا تبرح هذا المكان وإن كانت كريمة لا يعرفها الحران.
(٢) يقول إنه كثير الامـواه والشجر فالندى يسقط على اشجاره ليلا فهى تنفض على اعراف الخيل مثل الجمان أى الفضة.
(٣) يقول سرت وهذه الأشجار تحجب عنى حر الشمس وتلقى على من الضياء ما احتاجه.
(٤) الشرق الشمس يقول هذا الشجر كثير الورق ملتف فضوء الشمس يدخل من خلله فيكون على الثياب كأنه الدنانير غير أنه يفر من الأصابع.
(٥) يقول هذه الاغصان ثمارها رقيقة فكأنها لذلك اشربة قائمة بنفوسها ولا أوانى لها وهذا ينظر إلى قول البحترى:

يخـفى الزجـاجـة لونـهـا فكأنهـا ... فى الـكف قـــائمـة بـغـيـــر اناء

عادلاً حازمًا فى أموره، آمن البلاد، وعصف بأهل البغى والفساد[١] وبنى الحصون والمحارس على سواحل البحر حتى كان توقد النار من سبتة فينتهى الخبر إلى الاسكندرية فى الليلة الواحدة[٢] وذلك[٣] لسبع بقين من شعبان سنة تسع وثمانين ومائتين الموافق أول أغشت الرومى سنة اثنتين وتسعمائة، وكان لفتح هذا البلد اسوأ وقع فى نفس الانبرور صاحب القسطنطينية حتى بقى سبعة أيام لا يلبس التاج وقال لا يلبس التاج محزون[٤] ثم مدينة قطانية على ستة أميال من مدينة لياج الواقعة بينها وبين طبرمين، وهى مدينة كبيرة على ساحل البحر فى سفح جبل النار وتسمى الآن مدينة الفيل لأن فيها طلسمًا من حجر على صورة فيل كان منصوبًا فيهما غبر من الأيام على بناء شاهق ثم نقل ونصب داخل المدينة[٥] وبهذه المدينة الأسواق العامرة، والديار الزاهرة والمساجد والجوامع والفنادق والحمامات، ثم مدينة سرقوسة[٦] شرقى مدينة قطانية على مرحلتين كبيرتين منها، وهى من

(١) أتى عليهم واهلكهم.

(٢) ابن الأثير.

(٣) أى فتح المسلمين مدينة طبرمين.

(٤) ابن الأثير.

(٥) نزهة المشتاق.

(٦) هى مسقط رأس الشاعر ابن حمد يس وولده محمد بن حمد يس ذكره العماد الكاتب وقال إنه أشعر من والده وأورد له شعراً جزلا، ولأن وقتهما متأخر عن وقت الرحلة لم نتعرض لهما فى الرحلة، وكذلك ينسب إليها أبو عمرو عثمان بن على بن عمر السرقوسى النحوى قال السلفى كان من العلم بمكان نحواً ولغة وله تواليف فى القراءات والنحو والعروض وجاء القاهرة وصارت له حلقه للاقراء فى جامع عمرو، وينسب إليها الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن ابن أبى بكر السرقوسى ذكره العماد فى الخريدة وأورد له شعراً:

وقد جاءت سرقوسة فى شعر لابن قلاقس السكندرى يصف به مركبا سار به إلى صقلية قال:

ثم استقلت بى على علاتها ... مجنونة سبحت على مجنون

هوجاء تقسم والرياح تقودها ... بالنون أنًّا من طعام النون

حتى إذا ما البحر ابدته الصبا ... ذا وجنة بالموج ذات غضون

القت به النكباء راحة عائث ... قلبت ظهور مشاهد لبطون

وتكفلت سرقوسة بأمامنا ... فى ملجأ للخائنين أمين

مشهورات المدن وأعيان البلاد، تضرب إليها أكباد الإبل من كل حاضر وباد، وهى على ساحل البحر والبحر محدق بها من جميع جهاتها، وبها ما بأكبر المدن من الأسواق والخانات والمساجد والحمامات والمبانى الرائقة والأفنية الواسعة المونقة، ولها إقليم كبير طوال كله مزارع وجنات وأثمار، وقدَمًا كان بها سرير ملك الروم، فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقلت دار الملك إلى مدينة قصريانه إلى أن امتلك المسلمون سائر الجزيرة، وقد فتح المسلمون سرقوسة هذه رابع عشر رمضان سنة أربع وستين ومائتين الموافق عشرين مايه الرومى سنة سبع وسبعين وثمانمائة، ثم مدائن نوطس وشكلة ورغوص وبشيره[١] وكركبت[٢] وشاقة[٣] ومازَر[٤] ومرسى على وطرابنُش[٥] ومدائن أخرى كثيرة[٦] وكلها على

(١) وهى بلد عبد الرحمن بن محمد بن عمر البشيرى الصقلى ذكره العماد الكاتب فى خريدة العصر واورد له قصيدة مدح بها رجار (روجر النور مندى).

(٢) ينسب إليها محمد بن الحسن بن على أبو بكر الكركنتى الفقيه المالكى قال المقريزى فى كتاب المقفى كان من الاخيار وافاضل المسلمين قدم الاسكندرية وتوفى سنة ٥٣٧.

(٣) قال ياقوت ينسب إليها أبو عمر عثمان بن حجاج الشاقى الصقلى من سكان الاسكندرية لقيه السلفى وعلق عنه وتوفى فى محرم سنة ٥٤٤ وتفقه على مذهب مالك على الكبر وكتب كتبًا كثيرة فى الفقه.

(٤) وإليها ينسب أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد التيمى المازرى الفقيه المالكى المحدث قال ابن خلكان هو أحد الأعلام المشار إليهم فى حفظ الحديث والكلام عليه وشرح صحيح مسلم شرحًا جيدًا سماه كتاب المعلم بفوائد كتاب مسلم وعليه بنى القاضى عياض كتاب الاكمال، وله فى الادب كتب متعددة وله كتاب ايضاح المحصول فى برهان الاصول وكان فاضلا متفننا وتوفى فى الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة ست وثلاثين وخمسمائة وعمره ثلاث وثمانون سنة.

(٥) ينسب إليها عبد الرحمن بن أبى العباس الكاتب الطرابنشى اورد له العماد الكاتب فى الخريدة ابياتًا جزلة فى وصف متنزه وكذلك ينسب إليها أبو الحسن بن عبد الله الطرابنشى ذكره العماد أيضا واورد له شعرا، وسليمان بن محمد الطرابنشى ذكره ابن القطاع فى الدرة الخطيرة.

(٦) ومن مدائن صقلية مدينتا سمنطار وبلنوية ذكرهما ياقوت قال ومن الأولى أبو بكر عتيق السمنطارى الرجل الصالح العابد له كتاب كبير فى الرقائق وكتاب دليل القاصدين يزيد على عشرة مجلدات قال: قال ابن القطاع، العابد أبو بكر عتيق بن على بن داود المعروف بالسمنطارى أحد عباد الجزيرة المجتهدين وزهادها العاملين، وممن رفض الأولى ولم يتعلق =

ساحل البحر كما اسلفنا عدا مدينة رغوص فإن بينها وبين البحر نحوا من اثنى عشر ميلا، أما مدينة قَصرِيانه فهى فى وسط الجزيرة على سن جبل وهى مدينة أزلية قديمة، وقد كان فيها سرير ملك الروم نقل إليها كما أسلفنا بعد أن ملك المسلمون مدينة سرقوسة لحصانتها، وقد فتح المسلمون هذه المدينة يوم الخميس منتصف شوال سنة أربع وأربعين ومائتين الموافق سلخ يناير الرومى سنة تسع وخمسين وثمانمائة، ولما فتحها العباس الأغلبى بنى فيها فى الحال مسجدا ونصب فيه منبراً وخطب فيه يوم الجمعة وذل الروم بصقلية يومئذ ذلا عظيما.

«وبعد» فهذا الذى ذكرنا من بلدان هذه الجزيرة إنما هو غيض من فيض ونحن إذا حاولنا ذكر سائر المدن والقرى والقلاع المعروفة فى هذه الجزيرة، لاحتجنا إلى أسفار كثيرة، وفى هذا القدر غَناء.

وقد رأينا من تمام الفائدة أن نصور للناظر فى هذه الرسالة جزيرة صقلية وبعض بلدانها المشهورة وبلاد قلورية ومدينة ريو وجزائر أقريطش وسردينية

= منها بسبب، وطلب الأخرى وبالغ فى الطلب، وسافر إلى الحجاز فحج وساح فى البلدان من أرض اليمن والشام إلى أرض فارس وخراسان ولقى من بها من العباد وأصحاب الحديث والزهاد فكتب عنهم جميع ما سمع وصنف كل ما جمع وله فى دخول البلدان ولقياه العلماء كتاب بناه على حروف المعجم فى غاية الفصاحة وله فى الرقائق وأخبار الصالحين كتاب كبير لم يسبق إلى مثله فى نهاية الملاحة وفى الفقه والحديث تآليف حسان فى غاية الترتيب والبيان وله شعر فى الزهد ومكائد الزمان ـ ومنه قوله:

فتن أقبلت وقوم غفول ... وزمان على الأيام يصول
ركدت فيه لا تريد زوالا ... عم فيها الفساد والتضليل
أيها الخائن الذى شأنه الأثم ... وكسب الحرام ماذا تقول
بعت دار الخلود بالثمن البخس ... بدنيا عما قريب تزول

قال وقد توفى لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٤٦٤- قال ياقوت وإلى بلنوية ينسب أبو الحسن على بن عبد الرحمن واخوه عبد العزيز الصقلى البلنوبى القائل:

بحق المحبة لا تجفنى ... فانى إليك مشوق مشوق
ولا تنس حق الوداد القديم ... فذلك عهد وثيق وثيق
وكن ما حييت شفيقا على ... فإنى عليك شفيق شفيق
ولا تتهمنى فيما أقول ... فوالله إنى صدوق صدوق

وقرشقة وميورقة ومنورقة ويابسة ومدينتى الاسكندرية والمرية وبالجملة كل ما جاء له ذكر فى هذه الرسالة.

وقد آن لنا أن نرجع إلى ما نحن بصدده

* * *

مدينة مسينى:

أما مدينة مسينى فهى فى ركن من الجزيرة بشرقيها[١] مستندة إلى جبال قد انتظمت حضيضها وخنادقها والبحر يعترض أمامها فى الجهة الجنوبية منها، ومرساها أعجب مراسى البلاد البحرية كما اسلفنا لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسكه ولا يحتاج إلى زواريق فى وسقها ولا فى تفريغها إلا ما كان مرسيًا على البعد منها يسيراً فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد فى مرابطها واصطبلاتها وذلك لافراط العمق فيها[٢].

وهذه مسينى هى رأس جزيرة صقلية وهى كثيرة العمائر والضياع، وأرضها طيبة المنابت وبها جنات وبساتين ذات أثمار كثيرة ولها أنهار غزيرة عليها ارحاء جمة[٣].

* * *

ولما نزلت هذه المدينة سلمت امتعتى إلى أحد الحمالين وقصدت معه إلى أحد الفنادق فذهب بى إلى فندق قائم على جبل مطل على المدينة، وكان لأحد مغاربة أفريقية، فاحتفى بى صاحبه وبالغ فى إكرامى واحتفل فى راحتى حتى أنسانى برقة حاشيته وطيب أنسه مجاشم السفر وذل الاغتراب، وقد صادفت فى هذا الفندق أبا عبد الله الصقلى الفيلسوف وكان قد نهد حفظه الله من بلرم إلى مسينى لما علم بقدومى فكمل أنسى به وعرانى من الغبطة والسرور ما لا يقوم

(١) ابن جبير.
(٢) الأدريسى.
(٣) ابن جبير.

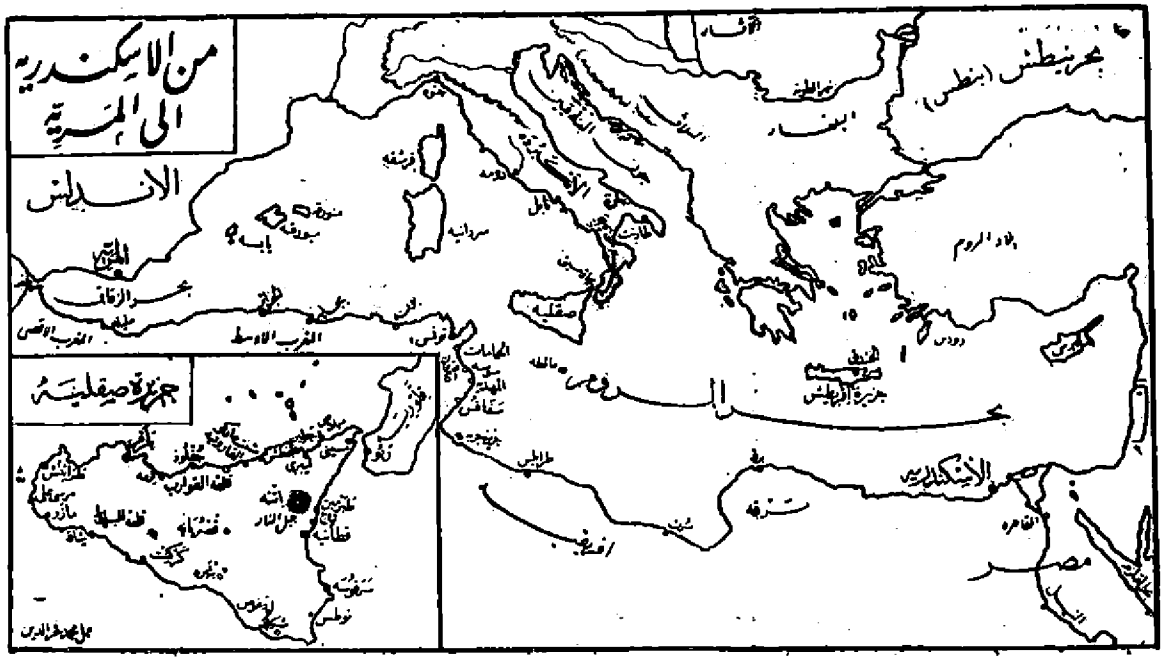
من الاسكندرية
الى المسرية
الاندلس
بحر البلقان
بحر البنطس (بنطس)
بلاد الروم
البحر الرومي
الاسكندرية
مصر
القاهرة
جزيرة صقلية

بالعبارة عنه بيان، ولا يروم اطّلاع فجه لسان، ولا سيما حين أخبرنى أبو عبد الله أنه ينتوى الذهاب إلى الاندلس وهى منتواى ومقصدى.

* * *

ولما رأيت أبا عبد الله ـ وكنت لم اره قبل ذلك بيد انى سمعت بفضله الجم وعلمه الغزير حتى شغفت برؤيته ـ والأذن تعشق قبل العين احيانًا ـ رأيت منه رجلا تشد إليه الرحال، وتضرب إلى علمه اكباد الآبال، ويصاب عنده مقطع الحق واليقين، ويُلفى لديه مفصل السداد فى علوم الحكمة والدين.

من مبلغ الاعراب أنى بعدها
شاهدت رسطاليس والاسكندرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما
رد الاله نفوسهم والاعصرا

ولا جرم فإن أبا عبد الله فيلسوف عصره، وواحد قطره، وهو فى علم الطب والحكمة منقطع النظير لا تكاد تفتح العين على مثله، وقد حذق اللسانِ الاغريقى واحكم معرفته حتى كأنه من أهله، وهو فى الادب منظومه ومنثوره نادرة الفلك وبكر عطارد.

* * *

ولقد أقمت فى مسينى ثلاثة أيام بلياليها أنسانى فيها أبو عبد الله الصقلى الفيلسوف بأدبه وظرفه ورقة حاشيته ما يعرو الغريبَ فى البلد النازح من الوحشة والانقباض، ثم علمنا فى اليوم الرابع لمقامنا أن قد أرست على ميناء هذا البلد سفينة كبيرة قادمة من القسطنطينية العظمى قاصدة إلى بر الاندلس، فاعتزمت أنا وأبو عبد الله أن نسافر فيها، وكان هذا العزم من تمام فضل الله علينا وحسن توفيقه إذ أصبنا فى هذا المركب عند نزولنا فيهُ منْية النفس ومطمح الروح ـ فضل المدينة ـ التى ضرب الدهر بينى وبينها أياما كانت على قلتها كأنها شهور بل أعوام، وكان

معها صاحبتاها علمَ المدنية وقَلمَ الرومية، وهن كما علمت ممن حذقن الغناء ونبغن فيه بعد أن تعلمنه فى المدينة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهذه قلم كما أخبرتنى أندلسية الاصل رومية من سبى البَشكنس وحملت صغيرة إلى المشرق فوقعت بالمدينة المنورة ولُقنت هنالك الغناء، ثم اشتريت مع علم لامير المؤمنين بالاندلس عبد الرحمن الناصر.

* * *

وقد أخبرتنى فضل أن المركب الذى كانت فيه لما أرسى على مسينى بعد ارسائه على ريو لشراء ما يحتاج إليه من الميرة والطعام أُلقِى فى رُوعها هى ومن معها أن ينزلن فى مسينى ويتركن هذا المركب ـ وهو لامير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ـ خشية أن يأسره ومن فيه عمال المعز لدين الله الفاطمى لأن بلاد صقلية إحدى ولايات المعز، وقد علمت أن هذا المركب كان قد تحرش وهو ذاهب إلى المشرق بمركب للمعز، فأحفظ المعز هذا الامر وأخذه منه المقيم المقعد[1] وحمله على أن يطوى كشحه[2] على الثأر من الناصر، ثم أقامت فضل هذه المُديدَة فى فندق من فنادقها، فى رَبض من ارباضها، فقلت يا عجبا كل العجب:

أليس غريبًا أن نكون ببلدة كلانا بها ثاوٍ ولا نتكلم

* * *

أما نبأ هذه السفينة الرومية فذلك أن قسطنطين بن ليون انبرور الروم «امبراطور دولة الرومان الشرقية» كان قد أهدى منذ ثمان حِجَج إلى أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر هدايا ذات قدر عظيم، يتقرب بها إليه، ويصبص بذنبه لديه[3] واستدفاعًا لمكره وكيده، واستجلابًا لعَطفه ووده، واستظهارًا به على آخذ بلاده

(١) الغضب.

(٢) يعزم.

(٣) يتملقه ـ والبصبصة فى الاصل تحريك الكلب ذنبه طمعًا أو خوفًا.

«بلاد قسطنطين» المعز لدين الله[١] وكان من هذه الهدايا كتاب ديسقوريدس الطبيب، مصور الحشائش العجيب، وكتاب هروشيش «هيرودوتس» المؤرخ الرومى العظيم، وكان الكتاب الأول مكتوبًا بالإغريقى، وهو اليونانى القديم، والكتاب الثانى كان مكتوبًا باللسان اللطينى، وكتب قسطنطين فيما كتب اذ ذاك إلى الناصر: إن كتاب ديسقوريدس لا تجتنى فائدته إلا برجل يحسن العبارة باللسان اليونانى ويعرف أشخاص تلك الأدوية، فإن كان فى بلدك من يحسن ذلك فزت أيها الملك بفائدة الكتاب، وأما كتاب هروشيش فعندك فى بلدك من اللطينيين من يقرؤه باللسان اللطينى وإن كشفتهم عنه نقلوه إليك من اللطينى إلى اللسان العربى» ولم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الاندلس من يعرف الاغريقى، فبقى كتاب ديسقوريدس فى خزانة الناصر كما هو لم يترجم إلى العربية، فلما ولى أمر الروم ارمانيوس بن قسطنطين تقدم إليه الناصر[٢] بأن يبعث رجلا يعرف الاغريقى واللطينى ليعلم له عبيدًا يكونون مترجمين[٣] فأرسل ارمانيوس فى هذا المركب راهبًا عظيمًا يسمى نقولا، وقد أزلفتُ لك أن أبا عبد الله الصقلى يحسن الاغريقى إحسانه للطب والفلسفة والنجوم، وقد كان أخبرنى أن الناصر أرسل إليه يستحثه على الوفود إليه ليكون فى خدمته[٤] فكان ذلك سببًا فى انعقاد الصحبة بيننا وبين هذا الراهب، وقد أصبنا منه رجلا حدّيثا طريف المحاضرة له مشاركة فى كثير من العلوم والآداب.

* * *

(١) كان الفاطميون زمن هذه الرحلة فى حروب لا تكاد تنقطع بينهم وبين الرومان، وقد أخذوا من الرومان صقلية والجزء الجنوبى من ايطالية ـ راجع الكلام على صقلية.

(٢) أمره.

(٣) طبقات الاطباء.

(٤) ذكر ابن جلجل أن أبا عبد الله الصقلى كان فى الاندلس أيام الناصر مع الراهب نقولا وقال عنه إنه طبيب فاضل وإنه يعرف الاغريقى.

ولقد ألفينا فى هذا المركب طبيبين اندلسيين كانا قد رحلا إلى المشرق منذ سنين واقاما هنالك نيفا وعشرين سنة ودخلا دار السلام «بغداد» وقرآ فيها على ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة كتب جالينوس ثم قفلا راجعين إلى الاندلس مسقط رأسهما، ونزلا فى هذا المركب من أحد الثغور، وهما أخَوان يسمى أحدهما عمر والثانى أحمد[١] وهما ابنا يونس بن أحمد الحرانى الطبيب المشهور، وقد أخبرانى أن كتاب ديسقوريدس هذا كان قد ترجمه بدار السلام أيام جعفر المتوكل الخليفة العباسى اصطفن بن بسيل المترجم من الاغريقى إلى العربى، وتصفحه حنين بن إسحاق فصحح الترجمة وأجازها ـ قالا: وقد ورد هذا الكتاب إلى بلادنا «الاندلس» وهو على ترجمة اصطفن[٢] وقد قرأناه وصححنا كثيراً من أسماء العقاقير التى لم يعرف لها اصطفن اسمًا فى العربية، وقد انتفع كثير من أهل المشرق وأهل الاندلس بالمعروف منه، وفى الاندلس اليوم من إخواننا الأطباء نفر توفروا على هذا الكتاب يصححون اسماء عقاقيره ويعينون اشخاصها، ومنهم اخونا البساسى والشجار وأبو عثمان اليابسة ومحمد بن سعيد الطبيب[٣] وكأنا بسيدنا الناصر أدام الله تأييده وقد أبى إلا أن يقر الامر فى نصابه، ويغمد السيف فى قرابه، ويتم امر هذا الكتاب على ما به، فطلب إلى ارمانيوس ما طلب، وكل ذلك من سيدنا فضل عناية منه بكل ما يجدى على بلاده ويسمو بها صُعُدًا إلى ابعد مراتب العظمة الذهنية كما أبعدت به وباسلافه فى سائر ضروب الحضارة، وذلك لما فطره الله عليه من العزيمة النافذة، والهمة الطموح البعيدة المرمى، فلا يتعاظمه أمر، ولا تقف همته دون غاية، وحتى لا يحيك فى صدر إنسان أن خلفاء بنى

(١) جاء فى طبقات الاطباء أن هذين أحمد وعمر سافرا من الاندلس إلى المشرق سنة ٣٣٠ هجرية ثم رجعا إليها سنة ٣٥١ واستخلصهما الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر لنفسه.

(٢) طبقات الاطباء فى الكلام على ابن جلجل.

(٣) طبقات الاطباء.

العباس فى المشرق، أو منافسيه الفاطميين فى افريقية قد سبقوه إلى شىء لم يسبقهم هو إليه، وأنت تعلم أن هذه الدول الإسلامية الثلاث[١] هى أعظم دول الأرض اليوم شأنًا، واضخمها سلطانا، والقابضة على زمام الأمور، والمالكة اخصب البلاد من هذا المعمور، والمستبحر عمران بلادها إلى أكثر من المتوقع المنظور، والتى تعد سائر دول الأرض من هذه الأمم الحمراء كأنها تبع لها وعيال عليها، فتراها لذلك نتهالك فى كل آونة على الازدلاف إليها، وتستنزل رضاها بالهدايا والتحف، وغريب النفائس والطُّرَف، وتستصرخها بعضٌ على بعض فتكون الحتوف أسبق إلى المغضوب عليهم من السيوف.

إنّا إذا مـــا أتانا صـــارخ فَـــزِع
كـــان الصـــراخ له قـــرع الظنـابيب[٢]

ومن ثم ترى هذه الدول العظمى تتسامى فى كل ما يكسبها حسن الاثر، وجميل الذكر، ويملأ مسامع الدهر حمدًا وثناء، وينبض له قلب الدنيا فخرًا وعلاء، فتراها لذلك آخذةً بيد العلم والعلماء، مالئة باعطياتها أيدى الشعر والشعراء، حتى العلوم الفلسفية بجميع ضروبها من الهية وطبيعية ورياضية وطبية وفلكية تعضدها وتغرى القائمين عليها بالاستزادة منها والتقصّى فى البحث عن غوامضها، وتظهر الرغبة فى الحصول على مآخذها من ملوك الروم الذين حشدت فى خزائن كتبهم تواليف فلاسفة اليونان الأقدمين.

* * *

ولقد أقلعت بنا السفينة باسم الله مجراها من ميناء مسينى، وبكرت مع البازى عليه سواد، فى فجر يوم الجمعة سَلْخ ربيع الأول، وذلك لثلاث عشرة ليلة خلت

(١) الدولة العباسية والدولة الفاطمية والدولة الأموية بالاندلس.

(٢) البيت لسلامة بن جندل ـ يقول: إذا أتانا مستغيث كانت اغاثته الجد فى نصرته يقال قرع لذلك الأمر ظنبوبه إذا جد فيه والظنبوب هو طرف العظم اليابس من الساق ـ فالشاعر جعل قرع الصوت على ساق الخف فى زجر الفرس قرعا للظنبوب.

من شهر جونيو الرومى سنة ست وخمسين وتسعمائة من مولد السيد المسيح، عليه الصلاة والسلام، وكان البحر هادئًا، والنسيم فاترًا عليلاً، وكانت قبة فضل ومن معها بمرأى منا ومسمع، وكان معنا اديب من ادباء صقلية لم نكن ندرى أين وجهته ولكنه نزل بعد ذلك فى جزيرة ميورقة، وكان قد ندّ منه عقيب اقلاعنا من مسينى امر افضى إلى حديث لا علينا إذا نحن اوردناه فى هذه الرسالة تطرية للقول، وذلك أنا بعد أن صلينا الصبح حاضرة وصلى معنا هذا الاديب الصقلى رأيناه وقد انتحى ناحية وأخذ يصطبح ويلح على ابنة العنب يشربها صرفا لا يقتلها بالماء، فانكرت عليه ذلك انكاراً شديداً وقلت له: ما تصنع بالخمر، وإن أولها لمر وإن آخرها لسكر، فقال: لا أقول لك إلا ما قال الاخطل لعبد الملك بن مروان إذ قال له عبد الملك مثل قولك هذا فقال له الاخطل: ولكن بين هاتين لمنزلةٌ ما مُلك امير المؤمنين فيها إلا كعلقة ماء من الفرات بالاصبع ثم انشد الاخطل:

إذا مـــا نديمى علّنى ثم علّنى
ثلاث زجـــاجـــات لهن هدير
خـرجت أجـر الـذيل تيـهـا كـأننى
علـيك أمـيـرَ الـمـؤمنين امـيـرُ

«وبعد» فلله ذلك الطائر الفردوسى البديع الذى كأنه روح هبط على هذه الغبراء من المحل الارفع ومعه تلك الهدية التى لا هدية مثلها، تلك البذور الثلاث[1] التى ما أظنه إلا أنه اختلسها من عنب الجنة ليتحفنا بها فنزدرعها ونفزع

(١) نشير بذلك إلى خرافة جميلة ذكرها المسعودى فى كتابه مروج الذهب وهى أن أحد ملوك الهند الاقدمين كان جالسًا ذات يوم فى قصره واخوته حوله فأخذت عينه طائراً قد أفرخ فى أعلا قصره ورآه يضرب بجناحيه ويصيح فتأمل الملك ذلك فنظر إلى حية تنساب إلى الوكر صاعدة لأكل فراخ الطائر فدعا الملك بقوس فرمى الحية فصرعها وسلمت فراخ الطائر فجاء الطائر بعد هنيهة يصفق بجناحيه فى منقاره حبة وفى مخلابيه حبتان وجاء إلى الملك وألقى ما =

إلى عصيرها فى هذه الحياة المحزونة المفعمة آلاما ليسرى عنا ويجلو منا صدء الحس، وينفى الهم عن ساحة النفس.

إن الذى جعل الهموم عقاربا ... جعل المدام حقيقة درياقها

* * *

اقتلا همى بصرف عقار ... واتركا الدهر فما شاء كانا

إنّ للمكروه لذعة همّ ... فإذا دام على المرء هانا

* * *

إذا ما أتت دون اللهاة من الفتى

دعا همه من صدره برحيل

فقلت له ولكنها، قبّحها الله، تسىء من المرء أخلاقه، وتخمل النابه، وترفعه

= كان فى منقاره ومخلابيه والملك يرمقه فوقع الحب بين يدى الملك فتأمله وقال ما ألقى هذا الطائر ما ألقى إلا أنه أراد بلا شك مكافأتنا على فعلنا به فأخذ الحب وجعل يتأمله فلم يعرف مثله فى اقليمه فقال جليس من جلسائه حكيم وقد نظر إلى حيرة الملك فى الحب أيها الملك ينبغى أن يودع النبات ارحام الأرض فإنها تخرج كنه ما فيه فتقف على الغاية منه واداء ما فى مخزونه ومكنونه فدعا بالاكرة وامرهم بزرع الحب ومراعاته وما يكون منه فزرع فنبت وأقبل يلتف بالشجر ثم حصرم وأعنب وهم يرمقونه والملك يراعيه إلى أن انتهى فى البلوغ وهم لا يقدمون على ذوقه خوفا أن يكون متلفا فأمر الملك بعصر مائه وأن يودع فى اوان وافراد حب منه وتركه على حالته فلما صار فى الآنية عصيراً هدر وقذف بالزبد وفاحت له روائح عبقة فقال الملك علىّ بشيخ فأتى به فلدد له من ذلك فى اناء فرآه لونا عجيباً ومنظراً كاملا ولونا ياقوتيا احمر وشعاعا نيراً ثم سقوا الشيخ فما شرب ثلاثًا حتى مال وأرخى من مآزره الفضول وحرك رأسه ووقع برجليه فطرب ورفع عقيرته يتغنى فقال الملك هذا شراب يذهب بالعقل وأخاف أن يكون قاتلا ألا ترى إلى الشيخ كيف عاد فى حال الصبى وسلطان الدم وقوة الشباب ثم أمر الملك به فزيد فسكر الشيخ فنام فقال الملك هلك ثم إن الشيخ افاق وطلب الزيادة من الشراب وقال لقد شربته فكشف عنى الغموم وازال عن ساحتى الاحزان والهموم وما أراد الطائر إلا مكافأتكم بهذا الشراب الشريف فقال الملك هذا شراب اشرف أهل الأرض وذلك أنه رأى شيخًا قد حسن وقوى حيله وانبسط فى نفسه وطرب فى حال طبيعة الحزن وسلطان البلغم وجاد هضمه وجاءه النوم وصفا لونه واعتدلت اريحية فأمر الملك أن يمنع العامة من ذلك وقال هذا شراب الملوك وأنا السبب فيه فإن كان فلا يشربه غيرى فاستعمله الملك بقية أيامه ثم نما فى أيدى الناس واستعملوه.

إلى أسفل، وتهوى بالشرف الرفيع إلى الحضيض الاوهد، ولله ذلك القرشى حين يقول:

من تقرع الكأس اللئيمة سنّهُ
فلا بد يوما أن يسيء ويجهلا
ولم أر مطلوبا أخسَّ غنيمة
واوضع للاشراف منها واخملا

فسرعان ما أنشد:

إذا صدمتنى الكأس ابدت محاسنى
ولم يخش نَدمانى أذاتى ولا بخلى
ولست بفحاش عليه وإن أسا
وما شكل من آذى نداماه من شكلى

ثم قال: والخمر لذلك خليقة أن لا يشربها إلا الملوك وأشباه الملوك، أما السوقة والحشو والغوغاء والحمقى ومن إليهم فيجب أن يُصَلَّبوا أو يُقْتَلوا أو تُقَطَّع أيديهم وارجلهم إذا هم شربوها:

والخمر قد يشربها معشر ليسوا إذا عُدّوا بأكفائها

* * *

وجدت أقل الناس عقلا إذا انتشى
اقلهم عقلا إذا كان صاحيا
تزيد حُمَيَّاها السفيه سفاهة
وتترك أخلاق الكريم كما هيا

وبودى لو أن الكأس بألف والحرَ فى وجه الاسد حتى لا يشرب إلا كريم، ولا ينكح إلا شجاع.

أُجل عن اللئام الراح حتى كأن الراح تعصر من عظامى

ورحم الله أبا بكر الهذلى إذ يقول للمنصور وقد سأله عن النبيذ: لقد تمادت فيه السفهاء، حتى كرهته العلماء فقلت له أما تخشى الله يوم الحساب، فقال:

إذا صليت خمسًا كل يوم ... فإن الله يغفر لى فسوقى
ولم أشرك برب الناس شيئًا ... فقد امسكت بالدين الوثيق
فهذا الدين ليس به خفاء ... دعونى من بنيات الطريق

* * *

ألا لا يغرنك ذو سجدة ... يظل بها دائما يخدع
وما للتقى لزمت وجهه ... ولكن ليأتىَ مستودع
ثلاثون الفا حواها السجود ... فليست إلى ربها ترجع
ورد اخو الكاس ما عنده ... وما كنت فى رده اطمع

* * *

أما النبيذ فلا يذعرك شاربه
واحفظ ثيابك ممن يشرب الماء
قوم يداوون عما فى نفوسهم
حتى إذا استمكنوا كانوا هم الداء
مشمرين إلى انصاف سوقهم
هم الذئاب وقد يدعسون قراء

فقال أبو عبد الله الفيلسوف: الشراب ضار ونافع، أما إنه نافع فللبدن بإشراقه وتقوية الحرارة الغريزية وانعاشها وانضاج الرطوبات وتنقيح المجارى وإزالة سددها وتقوية الهضم وإنارة الدم وادرار الصفراء وترطيبها، وللنفس بانبساطها وتفتيح آمالها وتشجيعها وقتل الهم والفكر الفاسد ومن ثم كان أنفع الأشياء للماليخوليا ثم هو يؤدم بين القلب والقلب، ويبعث الشوق القديم الذى قد ضل فى الأحشاء، وكل أولئك إذا استعمل على الوجه الذى ينبغى وإلا استحالت هذه

المنافع مضار، فترى عوض السرور همًا وغمًا وضجرًا وسوء خلق، وعوض الصحة مرضًا مزمنًا أو موتًا فجائيًا، وإن إدامة الشراب تبلد الذهن وترخى العصب وتوهن قوى الدماغ وتورث الرعشة والتشنج، وقد أجمع الحكماء قاطبة على أن مدمن الخمر لا ينجب وإن أنجب كان الولد أحمق.

«وبعد» فإن أصدق ما جاء فى الخمر قول الله جل شأنه: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ ثم يقول سبحانه يصف خمر الجنة: ﴿لا فيها غَوْلٌ[1] ولا هم عنها يُنزَفون﴾ فكأن السر فى تحريمها هو أنها تغتال عقولنا وتشربها وتورثها الخبل والصداع كما قال الأوّل:

وما زالت الخمر تغتالنا وتذهب بالأول الأول

وما ألطف قول بعض الظرفاء وقد ترك النبيذ فقيل له: كيف تتركه وهو رسول السرور إلى القلب؟ فقال: نعم ولكنه بئس الرسول يُبعث إلى القلب فيذهب إلى الرأس، ويشبه ذلك قول المجنون لملك من الملوك وقد استظرفه واختار أن يكون نديمًا له وعرض عليه الشراب فقال المجنون: أيها الملك أنت تشرب هذا لتصير مثلى وأنا أشربه لأصير مثل من! وقال عبد العزيز بن مروان: لنُصَيب الشاعر يوما هل لك فيما يُثير المحادثة ـ يريد المنادمة ـ قال: أصلح الله الأمير الشَعَر مفلفل واللون مرمد ولم أقعد إليك بكرم عنصر ولا بحسن منظر وإنما هو عقلى ولسانى

(١) الغول الصداع والخمار، ولا ينزفون يسكرون وتذهب عقولهم، والاثم فى قوله جل شأنه، ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ فهو ما يترتب على اقتراف الذنوب والمعاصى من المضار قال أبو نواس:

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم
وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه
فإذا عصارة كل ذاك أثامُ

فإن رأيت ألا تفرق بينهما فافعل، وقيل لأعرابى: لم لا تشرب؟ فقال لا أشرب ما يشرب عقلى.

وناهيكم بعد ذلك بما يستتبعه ادمان الشراب من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ومن السكر والعربدة، وإيقاع العداوة والبغضاء والموجدة، ومن تقبيح الحسن وتحسين القبيح واغرائه بالفسوق وتعدى حدود الله وقلة الاكتراث لها ـ وصَدَق رسول الله ﷺ إذ يقول: «لا يشرب الشارب حين يشرب وهو مؤمن» ولقد مرت اعرابية بقوم يشربون نبيذا فسقَوها فلما شربت أقداحًا اعترتها أريحية فقالت: أيشرب هذا نساؤكم قالوا نعم قالت إذَنْ زنَين ورب الكعبة فما يدرى أحدكم من أبوه!.

* * *

ولاصحاب الشراب ولوع به واستهتار إلى الحد الذى لا يفكرون معه فى دين ولا مروءة، قيل لأبى نواس: اتشرب الخمر قال نعم، إذ اشترى بثمن خنزير قد سرق حتى يحرم ثلاث مرات، وهو القائل:

ألا فاسقنى خمرًا وقل لى هى الخمر
ولا تسقنى سرًا إذا امكن الجهر
فما الغبن إلا أن ترانى صاحيا
وما الغنم إلا أن يتعتعنى السكر

وقيل لشمامة: لم تشرب الخمر وهى تزيل العقل فقال: إن زال اليوم لا يزول غدًا، وباع بعض الأشراف من أصحاب الشراب ضيعة فقيل له: احضر العشية للاشهاد فقال: لو كنت ممن يصان بالعشيات لما بعت الضيعة، وقال رجل لآخر منهم: لقد وجهت إليك رسولا عشية أمس فلم يجدك فقال هذا وقت لا أكاد أجد فيه نفسى، ويقول أحدهم: وددت أنى أكون بعوضة فأموت تحت قربة نبيذ حتى يكون موتى فى ظلال نعيم، ولما ولى الحسن بن زيد رضي الله عنه المدينة قال لابن هَرْمة

الشاعر: لست كمن باع دينه رجاء مدحك أو خوف ذمك فقد رزقنى الله بولادة نبيه ﷺ الممادح وجنبنى المقابح، وإن من حقه علىّ أن لا أغضى على تقصير فى حق ربه وأنا أقسم لئن أُتيت بك سكران لأضربنك حدا للخمر وحدا للسكر، ولأزيدن لموضع حرمتك بى فليكن تركك ذلك لله تُعَن عليها ولا تدعها للناس فتوكل إليهم فقال ابن هرمة:

نهانى ابن الرسول عن المدام ... وأدبنى بآداب الكرام
وقال لى اصطبر عنها ودعها ... لخوف الله لا خوف الأنام
وكيف تصبرى عنها وحبى ... لها حب تمكن فى عظامى
أرى طيب الحلال علىّ خبثا ... وطيب النفس فى خبث الحرام

وقيل لرجل من أصحاب الشراب: ما تقول فى الماء؟ فقال: هو الحياة ويشركنى فيه الحمار، فقيل له: فاللبن قال: ما رأيته إلا ذكرت أمىّ واستحييت قيل: فالخمر قال: تلك السارة البارة شراب أهل الجنة، ودعا الوليد بن يزيد شراعة من الكوفة وهو منَ فتيانها فلما قدم عليه قال له: إنى والله لم أدعك لأسألك عن قرآن أو لأستفتيك فى سنة فقال: لو سألتنى عنهما لأصبتنى فيهما ثورا، فلم دعوتنى؟ قال: لأسألك عن الفتوة فقال: أنا دهقانها الخبير وعالمها الطبيب فسل فقال ما تقول فى نبيذ التمر، قال: اشربه حتى تحر، قال: فنبيذ الدن، قال: اشربه حتى تجن، قال: فالداذى قال احلى من الماذى قال: فنبيذ الزبيب فستر وجهه وقال العظمة لله، قال: فالخمر قال لا أرى شربها قال: ولم قال: لأنى لا أؤدى شكرها.

وهذا قليل من كثير ورحم الله من قال:

لم يبلغ الشيخ ابليس ارادته
حتى تكاثف فى عنقوده العنب

وفى الحق ما يقول ابليس: مهما اعجزنى ابن آدم فلن يعجزنى إذا سكر أن آخذ بزمامه فاقوده حيث أشاء واحمله على ما أريد.

* * *

ولربما بلغت جناية الشراب وادمانه إلى ما يأنف الحيوان الاعجم من اتيانه، رووا أن قيس بن عاصم أحد أشراف العرب فى الجاهلية كان يتردد عليه تاجر خمر فيبتاع منه ويقيم الخمار فى جواره حتى ينفد ما عنده فشرب قيس ذات يوم فسكر سكراً قبيحًا فجذب ابنته وتناول ثوبها ونظر إلى القمر وتكلم بشىء ثم انتهب مال الخمار وأنشأ يقول:

من تاجر فاجر جاء الاله به
كأن لحيته اذناب اجمال
جاء الخبيث ببيسانية تركت
صحبى وأهلى بلا عقل ولا مال

فلما صحا أُخبر بما قال وما صنع فآلى أن لا يذوقَ خمرا أبدَ الدهر.

وللسكارى فعال تضحك وتبكى، فمن ذلك أن سكرانًا وقع على الأرض فجاء كلب يلحس فاه فجعل يقول:

اخوكم ومولاكم وصاحب سركم
ومن قد نشا فيكم وعاشركم دهراً

وقال بعضهم كان فى دارنا سكران فقعد على مصلى فتبرز فيه فأخذت بيده إلى المستراح فنام فيه فقالت جاريتى: يا عجبا كل شىء منه مقلوب يتبرز حيث ينام الناس وينام حيث يتبرز الناس، وإن صاحب السكر يصير إما إلى قردية وهو الذى يضحك ويرقص ويحاكى، أو إلى كلبية وهو الذى يهارش، أو إلى خنزيرية وهو الذى يتقيأ ويتبرز ويتلوث فيهما، ومن هنا كانت الخمر حقيقة لا تتفق والمُروءةَ والعزة والكرامة، ولا تجتمع والشرفَ فى غِمد واحد.

* * *

ومن خصائص الخمر أنها تخرِّق الكف وتورث السخاء الكاذب حتى:

ترى اللحن الشحيح إذا امرّت
عليه لماله فيها مهينا

وكلما تكرر الشراب، تكرر التخرق فى الكرم والسخاء فيفضى ذلك على مَرّ الأيام إلى الفقر والفلاكة والشقاء، ويعم ذلك زوج الشارب وولده وكلَّ من يعول، وإن هذه وحدها لجريمة لا تغتفر، ولو لم يكن ثَمّت لصاحب الشراب زاجر غيرها لكان حَرِيًّا أن يقلع عنها.

* * *

وقد عُرف أصحاب الشراب بسوء العهد وقلة الحفاظ وأنهم اصدقاؤك ما استغنيت حتى تفتقر، وما عوفيت حتى تنكب، وما غلت دنانك حتى تنزف، وما رأوك بعيونهم حتى يفقدوك.

أرى كل قوم يحفظون حريمهم
وليس لأصحاب النبيذ حريم
اخاؤهم ما دارت الكاس بينهم
وكلهم رث الحبال سئوم
إذا جئتهم حيوك ألفا ورحبوا
وإن غبت عنهم ساعة فذميم
فهذا ثنائى لم أقل بجهالة
ولكننى بالفاسقين عليم

* * *

وقد تبلغ الخمر بصاحبها إلى أن تشوه خَلْقه فترى مدمنها يوما وقد عظم أنفه واحمر وتورم كما يقول شاعر فى حماد الراوية:

نعم الفتى لو كان يعرف ربه
ويقيم وقت صلاته حماد

هدلت مشافره الدنان فأنفه
مثل القدوم يسنها الحداد
وابيض من شرب المدامة وجهه
فبياضه يوم الحساب سواد

* * *

أخو الشراب ضائع الصلاة
وضائع الحرمة والحاجات
وحاله من أقبح الحالات
في نفسه والعرس والبنات
أف له أف ألى آفات
خمسة آلاف مؤلفات

* * *

وجملة القول ليس بعد قول الله جلّ شأنه: ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ مجال لقائل، والسلام على من اتبع الهدى.

* * *

وإنا لفي ذلك إذ اندفعت فضل المدنية تغني على عودها هذه الأبيات:

بيد الذي شغف الفؤاد بكم
تفريج ما ألقى من الهم
فاستبقني أن قد كلفت بكم
ثم افعلي ما شئت عن علم
قد كان صرم في الممات لنا
فعجلت قبل الموت بالصرم

فاستخف غناؤها أبا عبد الله حتى كاد أن يخرج من جلده فرحا، وتحرك

الراهب واهتز ثم غمغم كلمات ترجمها إلينا أبو عبد الله بما يقارب قول الظائى حبيب بن أوس:

ولم أفهم معانيها ولكن ورت قلبى فلم اجهل شجاها
فصرت كأننى اعمى معنى يحب الغانيات ولا يراها

ثم اندفعت تغنى:

آها على بغدادها وعرافها
وظبائها والسحر من احداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه
تبدو اهلتها على اطواقها
متبخترات فى النعيم كأنما
خلق الهوى العذرى من اخلاقها
نفسى الفداء لها فأى محاسن
فى الدهر تشرق من سنى اشراقها[1]

فأخذ العلج ينشج نشيجا حارا ويبكى بكاء عاليا حتى إذا سكت عنه البكاء قال ما معناه: لقد هاجت لى داء دفينا، ثم سكتَ وسكتت فضل وسكتنا ومضت السفينة لطيتها.

* * *

وكان سيرنا فى محاذاة الساحل بحيث نبصره رأى العين، وصرنا نسرّح النظر فى عمائر وقرى متصلة، وحصون ومعاقل فى قلل الجبال مطلة، وقد ارسل الله إلينا ريحا طيبة رخاء زجت السفينة تزجية طيبة، فكانت تلك الساعة من اطيب ما يظفر به السُّفْر[2] فى هذا البحر، وما زلنا فى انعم حال واطيبها حتى استقام ميزان

(١) الأبيات لاحدى الجوارى اللاتى اشترين من المشرق لاحد امراء الاندلس واسمها قمر ذكرها صاحب نفح الطيب.
(٢) المسافرون.

النهار وقام قائم الظهيرة وإذا ذاك ابصرنا عن يميننا تسع جزائر متجاورات آنسنا فيها دخانا يَصّاعد من جبلين فى جزيرتين من هذه الجزائر، فرأيت بعض المسافرين وقد ضربوا باذقانهم الأرض، لما ألمّ بهم من الذعر، فقال أبو عبد الله الصقلى لا عليكم أيها الاخوان، ولا تكونن قلوبكم كقلوب الطير، تنماث[1] كما ينماث الملح فى الماء، إن هذه البراكين مأمونة الناحية، وليست تزفر فى النهار إلا هذا الدخان الذى ترون، أما البركان المخوف فهو ذلك الرابض فى الجزيرة الكبرى «صقلية» وقد ابتعدنا عنه والحمد لله، وهنا سأله بعض القادمين من المشرق الافاضة فى وصف هذه البراكين وسر تلك الفظائع التى تتوارد اخبارها إلى المشرق، فأخذ أبو عبد الله يفيض فى القول على طريقته الفلسفية، ولا بأس إذا نحن اثبتنا هنا زبدة قوله اتماما للفائدة.

* * *

البراكين فى صقلية
والجزائر المجاورة لها
وما قاله فلاسفة الإسلام فى ذلك

قال أبو عبد الله ما ملخصه: من المعلوم الذى لا خفاء به أن هذه الكرة الأرضية السابحة فى الفضاء[2] بجملتها واجزائها ظاهرها وباطنها طبقات، ساف فوق ساف، مختلفة التركيب والخلقة، فمنها صخور وجبال صلبة، واحجار وجلاميد صلدة، ورمال جريشة، وطين رخو، وتراب لين وسباخ وشورج، بعضها مختلط ببعض، أو متجاورة كما قال الله جل شأنه: ﴿وفى الأرض قطع متجاورات﴾ وهى مختلفة الالوان والطعوم والروائح، فمن ترابها واحجارها وجبالها حمر وبيض وسود وخضر وزرق وصفر كما قال جل ثناؤه: ﴿ومن الجبال

(١) تذوب

(٢) اخوان الصفاء ـ ومن ذلك تعلم أن العرب سبقوا غيرهم إلى القول بكرية الأرض وأنها سابحة فى الفضاء

جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود﴾ وهى مع ذلك كثيرة التخلخل والثقب والتجاويف والعروق والجداول والانهار داخلها وخارجها، كثيرة الاهوية والمغارات والكهوف، وفيها من أنواع المعادن السائلة والجامدة ما لا يحصى كثرة، وهذه الاهوية والامواه إذا حمى جوف الأرض بتأثير الشمس فيه كتأثير القمر فى مد البحر وجزره سخنت تلك الامواه ولطفت وتحللت وصارت بخاراً وارتفعت وطلبت مكانا اوسع، فإن تكن الأرض كثيرة التخلخل تحللت وخرجت تلك البخارات من تلك النوافذ، وإن يكن ظاهر الأرض شديد التكاثف حصيفا منعها من الخروج وبقيت محتبسة تتموج فى تلك الاهوية لطلب الخروج، وربما انشقت الأرض فى موضع منها وخرجت تلك الرياح مفاجأة وانخسف مكانها ويسمع لها دوى وهدة وزلزلة، وإن لم تجد لها مخرجا بقيت هناك محتبسة، وتدوم تلك الزلزلة إلى أن يبرد جو تلك المغارات والاهوية ويغلظ وتتكاثف تلك البخارات وتجتمع اجزاؤها وتستحيل إلى ماء وتخر راجعة إلى قاع تلك الكهوف والمغارات وتمكث زمانا، وكلما طال وقوفها ازدادت صفاء وغلظا حتى تصير زئبقا رجراجا وتختلط بتربة تلك المعادن وتتحد بها، وقد تستحيل إلى كبريت أو نفط أو غيرهما حسب اختلاف ترب البقاع، فيكون من ذلك ضروب من الجواهر المعدنية المختلفة الطبائع ـ قلنا إن فى الجبال جبالا وفى الأرض ارضين يجوفها كهوف ومغارات وأهوية حارة ملتهبة، فهذه الكهوف قد تجرى إليها مياه كبريتية أو نفطية دهنية فتكون مادة لها دائما، فإذا اختنقت هذه المواد بفعل الحرارة ذهبت صُعُدا تطلب الخلاص، فقد تكون هذه المواد دخانا صرفا كما هى حال هذين البركانين فى هاتين الجزيرتين، وهذا الدخان يخرج بقوة شديدة حتى لقد يقذف فيه الحجر الكبير فترده ردا قويا وقد تكون هذه المواد احجاراً محترقة ومواد اخرى كبريتية ونفطية نارية تخرج كالسيل العرم فلا تمر بشىء إلا احرقته كما يكون من جبل النار الذى فى الجزيرة نفسها، وترى هذا الجبل يرمى فيما يرمى

بجمر كبير كاعدال القطن يقع بعضه فى البر فيصير حجراً أبيض خفيفًا يطفو على وجه الماء لخفته، والذى يقع فى البحر يصير حجراً أسود مثقبا تحك به الارجل فى الحمامات، وهو كذلك لخفته يطفو على الماء، ومن غريب الامر أنه إذا وقع هذا الجمر على حجر احترق ذلك الحجر واشتعل كما يشتعل القطن حتى يصير ذلك الحجر غبارا كالكحل، أما الحشيش وسائر ضروب النبات فلا تحترق، ولا يحترق إلا الحجارة والحيوان، فكأنها نار جهنم التى وقودها الناس والحجارة[١].

هذا ويسمى الاهالى عندنا أحد البزكانين الموجودين فى هاتين الجزيرتين «بركانا» ويسمون الآخر «استنبرى» ومعنى بركان واستنبرى فيما علمت الرعد والبرق[٢].

وقد لاحظت أن معادن الكبريت الاصفر لا توجد فى الاعم الأغلب إلا بجانب البراكين، ففى هاتين الجزيرتين معدن كبريت لا يوجد مثله بموضع آخر، رأيته ورأيت القطاع الذين يقتطعونه، رأيتهم وقد تمرطت شعورهم ونصلت أظفارهم من حره ويلبسه، وهم يذكرون أنهم يجدونه فى بعض الأيام سائلا متميّعا فيتخذون له فى الأرض مواضع يجتمع فيها ثم يجدونه فى غير ذلك الأوان قد تحجر فيقطعونه بالمعاول، وكذلك ترى بجانب جبل النار الذى فى الجزيرة نفسها آبار زيت النفط الذى لا يخرج منها إلا فى وقت معلوم من السنة ـ فى شهر شباط وشهرين بعده ـ فتراهم فى ذلك الوقت ينزلون فى هذه الآبار على درك ويخمر الرجل الذى ينزل فيه رأسه ويسد مسام أنفه (منخريه) وإن تنفس فى أسفل البئر هلك لساعته، وما يستخرجونه من هذا الزيت يضعونه فى اوانى فيعلو الدهن منه وهو المستعمل، وذلك كله مما يدل على طبيعة هذه الأرض الغريبة الشأن، ولله فى خلقه شئون، سبحانه مالك الملك لا إله غيره.

---

(١) تحفة الالباب.

(٢) تقويم البلدان لأبى الفداء.

مدينة بلـــــرم :

حضرة جزيرة صقلية

ولقائى أميرها أبا الحسين أحمد

كان وصولنا إلى مدينة بلرم بعد انفصالنا من مدينة مسينى بيومين كاملين، وكان تعريجنا عليها دون قصد منا إليه، إذ كانت الريح غير موافقة فى ذلك اليوم وهو يوم الأحد الخامس عشر من شهر جونيو الرومى سنة ست وخمسين وتسعمائة من مولد السيد المسيح، فاضطررنا أن نقيم فى هذه المدينة ريث أن تأتى الريح الموافقة، ولقد اهتبلت هذه الفرصة فجلت فى المدينة جولة وقفت فيها على أشياء كان لا بد من اجتلائها، وقد أسعدنى الحظ فقابلت اميرها من قبل المعز لدين الله الفاطمى أبا الحسين أحمد بن أبى الحسن الكلبى وجرى بينى وبينه حديث سأذكره لك بعد أن آتى على وصف هذه المدينة، إن شاء الله.

* * *

مدينة بلرم هى حضرة جزيرة صقلية، ففيها الوالى الذى يوليه الفاطمى وفيها قاضى القضاة وديوان الحسبة، ودار الصناعة، وفى مينائها يربض اسطولها الاعظم، ومنها يغدو ويروح مختالا على ثبج هذا البحر فيغزو ما شاء أن يغزو من جزائره وعُدوته الشمالية «جنوب اوربا» وهى لذلك كله وبفضل ما أحدثه المسلمون فيها من ضروب العمران تراها من أجمل المدن وأفخمها، فهى بهذه الجزيرة أم الحضارة، والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة، فما شئت فيها من جمال مخبر ومنظر، ومَراد عيش يانع أخضر، تطلع لك بمرأى فتان، وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان، فسيحة السكك والشوارع، تروق الأبصار بحسن منظرها البارع، مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذان[1] يشقها نهر ينساب فيها

(١) رحلة ابن جبير.

مثل الحية المذعور، أو السيف المشهور، ويطرد فى جنباتها أربع عيون زاخرة عليها ارحاء كثيرة لا تحصى.

بلد اعارته الحمامة طوقها
وكساه حلة ريشه الطاوس
وكأنما الأنهار فى ساحاتها
خمر وكأن ساحات الديار كئوس[١]

وهى تنقسم إلى خمسة أقسام محدودة متباينة متجاورة فقسم هو المدينة الكبرى التى تسمى بلرم، ويسكنها التجار، وفيها المسجد الجامع الذى كان فى القديم بيعة للروم وهو الآن لبديع ما فيه من الصنعة والغرائب المبتكرة من ضروب التصاوير وصنوف التزاويق[٢] التى ابدعها المسلمون فيه يعد من أعجب عجائب الدنيا[٣] النامة عن حذق العرب ومهارتهم فى الصناعة إلى الحد الذى لا وراءه، وفى هذه المدينة وفى أقسامها الأخرى نيف وثلاثمائة مسجد[٤] ولم أر مثل هذا العدد فى بلد من البلدان، ومن غريب الأمر أنى كنت واقفا فى جوار دار أحد الفقهاء الاعيان فى هذه المدينة وهو أبو محمد القفصى الوثائقى فبصرت قريبًا من مسجده على مقدار رمية سهم عشرة مساجد، ومنها المسجد تجاه المسجد لا يفصلهما إلا الطريق، وأغرب من ذلك أن من بين هذه العشرة المساجد، وإلى نحو عشرين خطوة من مسجد الفقيه القفصى المذكور مسجداً لابنه ابتناه ليتفقه فيه، منعزلا عن أبيه[٥] وهذا عمرك الله مما يستشف الناظر من ورائه ابهة القوم واعتزازهم بسلطانهم وأنهم سادة هذه البلاد، ولا جرم كان ذلك

(١) ابن اللبانة الشاعر الاندلسى.
(٢) الادريسى.
(٣) ذكر هذا الجامع بما لا يخرج عما ذكرناه نحن كل من الادريسى وابن حوقل.
(٤) ابن حوقل.
(٥) ابن حوقل.

باعثا لهم على التنافس فى المفاخر والمكارم وسائر خلال الخير والكمال، وهو معنى من المعانى التى يستتبعها الملك والغلب والسلطان[١] أما القسم الثانى من أقسام بلرم فهو المعروف بالخالصة، وهو مقام الوالى وأتباعه، وليس فيه اسواق ولا فنادق، وبه حمامان، وفيه مسجد جامع مقتصر صغير، وفيه حبس الوالى ودار صناعة البحر والديوان ـ والاقسام الأخرى الثلاثة، فقسم يعرف بحارة الصقالبة، وهذا القسم أعمر من القسمين السابقين وأجل ومرسى البحر به، وآخر يسمى حارة المسجد وثالث يسميه القوم الحارة الجديدة، وأكثر الاسواق فى هذا القسم كسوق الزياتين والصيارفة والصيادلة والخرازين والصياقلة والنحاسين وسوق القمح وسائر الصناع على اختلافهم، وفى هذه الحارة الجديدة نحو من خمسين ومائة حانوت لبيع اللحم، وهذا مما يدل على استبحار العمران فى هذه الجزيرة ورخاء أهليها وكثرة عديدهم، فسبحان المعز لمن يشاء.

* * *

ولقد حدثنى الفقيه الوثائقى حديثًا يجمل بنا أن نجلوه لك الآن قال[٢] إن المسلمين لما فتحوا هذه الجزيرة، وبلاد قلورية[٣] من بر الأرض الكبيرة[٤] واستوثق لهم الأمر، ومدت لهم امم الفرنجة يد الاذعان اخذوا حسب عادتهم فى كل بلاد يفتحونها بنية الإقامة فيها، واصلاح حال اهليها، فى أن يستنقذوا هذه البلاد من تلك الحمأة المتتنة التى كانت مرتطمة فيها أيام حكم الروم، فنشروا فى البلاد الوية العدل، وعمدوا إلى الزراعة فانتعشت بعد صرعتها، وإلى التجارة فهبت من رقدتها، وإلى الصناعة فانتاشوها من وهدتها، ووثب الاهلون وثبة كأنما أنشطوا من

(١) ابن خلدون فى مقدمته.

(٢) هذا الحديث من أوله إلى آخره إنما هو من تلفيقنا لفظًا ومعنى وكل ما هنالك أنا اعتمدنا فى عصارته التاريخية على ما ترجمه لنا أحد اصدقائنا من كتاب حضارة العرب لجوستاف لوبون خاصا بصقلية.

(٣) كلابرية «جنوب ايطاليه».

(٤) اوروبا.

عقال، فكثرت الاموال، واغدودقت الخيرات إلى الحد الاقصى، وافتن الناس افتنانهم فى ضروب الترف والنعيم واتساع العيس والتأنق فيه والتلون بأزهى الوانه، قال الفقيه: أما عدل المسلمين فإنك لتجد نصارى هذه البلاد لا يكاد المسلمون ينمازون عنهم بشىء، فالجميع يرتعون متبحبحين متحابين، وكل متمتع بعيشه وعقيدته وطقوسه فللنصارى كنائسهم كما أن للمسلمين مساجدهم، وإذا جاء عيد من الاعياد رأيت أعلام النصارى بجانب أعلام المسلمين، أما علم النصارى فقد صور فيه صليب مذهب فى بُهرة ساحة حمراء، وعلم المسلمين قد رسم فيه حصن اسود فى ساحة خضراء[١] أما نساؤهم فربما رأيتهن اليوم «الاحد» وهن ذاهبات إلى الكنائس، وقد تشبهن بنساء المسلمين، لأن المغلوب كما تعلم مولع دائماً بتقليد الغالب، فانتقبن بالنقب الملونة، وانتعلن الاخفاف المذهبة ولبسن الحرير الموشى بالذهب، والتحفن اللحف الرائقة، وتزين بكل ما يتزين به المسلمات[٢].

إن من يدخل الكنيسة يوما
يلق فيها جآذرا وظباء

وليس يطلب من النصارى سوى تلك الاتاوة التافهة المفروضة عليهم تلقاء قومة السلطان على الرعية، وهى ديناران يؤديهما غنيهم، ودينار واحد يؤديه صناعهم وارباب الحرف منهم، أما النساء والاطفال فليس شىء بمفروض عليهم[٣] وهم يقرون بأنهم لم يذوقوا طعم هذا العيش الاخضر إلا على عهد المسلمين وأما الزراعة فقد شققنا الأنهار، واحتفرنا الجداول، واقمنا عليها القناطر الحاجزة[٤]

---

(١) حضارة العرب للدكتور جوتستاف لوبون.
(٢) ابن جبير.
(٣) جوستاف لوبون.
(٤) قال الدكتور لوبون أن العرب هم الذين حفروا الترع التى لا تزال باقية إلى الان وهم الذين اخترعوا الاهوسة ذوات الحواجز وكانت قبلهم مجهولة.

واحيينا الأرض الغامرة، فأخصبت ودرت وربت، وأخذت زخرفها وازّينت، وجلبنا إلى هنا كثيراً من الاشجار والازهار وضروب النبات التى لم يكن ليعرفها اهل البلاد الاصليون مثل القطن والقصب وشجر الزيتون[١] والبردى[٢] الذى لا يوجد إلا فى مصر وكثير غير ذلك.

وأما الصناعة فقد خطت بفضل المسلمين خطوات بعيدة المدى فاستثرنا دفائن الأرض ومعادنها من الفضة والنحاس والرخام والحديد، ومهر المسلمون فى ضروب الصناعات الشتى الألوان، فحذقوا صنع الحرير والصباغة وما إليها[٣] وكذلك تراهم قد برعوا وأربوا وتفوقوا فى سائر العلوم الصناعية بَلْهَ الادبية والدينية والفلسفية حتى إن الفرنجة لانبهارهم من براعة المسلمين فيما بلغنى يقرفونهم بالسحر[٤] وما هو عمرك الله بالسحر، إن هو إلا تسنمهم ذروة الكمال، وهوىّ هذه الأمم الحمراء إلى الحضيض الاوهد.

والنجم تستصغر الابصار صورته
والذنب للطرف لا للنجم فى الصغر

---

(١) جوستاف لوبون.

(٢) ابن حوقل.

(٣) قال الدكتور لوبون: إن العرب هم الذين ادخلوا فى البلاد صناعة الحرير وأن فى نورمبرج رداء من الحرير مما كان يلبسه امراء صقلية عليه كتابه بحروف كوفية، قال: وكل شىء يبعث على الاعتقاد بأن صناعة صباغة الاقمشة إنما انتشرت فى اوروبا من صقلية.

(٤) اورد الدكتور لوبون هذه الحكاية بعد أن ذكر ان الرهبان كانوا ينسبون مخترعات العرب إلى السحر قال، فى احدى حملات النورمانديين الذين طرأوا على صقلية فى اواخر ايام العرب فى صقلية استكشف الكونت روبارت ويسكرد تمثالا قائما على عمود رخام متوجًا بدائرة من البرنز محفور عليها هذه الكلمات «سيكون لى فى أول مايو عند طلوع الشمس تاج ذهبى» «فلم يدرك احد مغزى هذه الكلمات غير ان عربيا من صقلية كان اسيراً لدى الكونت افهم روبرت أنه يدرك معناها الخفى وانه إذا وعده اطلاق سراحه فسرها له فلما وعده روبرت نصح له الاعرابى أن يحفر فى أول مايو عند طلوع الشمس فى المكان الذى ينتهى إليه ظل التمثال ففعل الكونت ذلك فوجد كنزاً هائلا لا تقدر قيمته.

وأما التجارة فلعلك قد شاهدت كثرة السلع والبضائع المجلوبة إلى هذه البلاد، والحوانيت والمتاجر المتكاثرة فى شوارع البلد، وكذلك عساك قد أبصرت الحركة المباركة فى موانئنا وعمال المكوس فيها مما تتحقق منه أن الجزيرة قد شأت شأواً بعيداً فى التجارة بفضل نشاط المسلمين وإقدامهم وبعد هممهم، وكل ذلك بما أثر فيهم روح هذا الدين القويم وآدابه الالهية.

لقائى الامير أبا الحسين محمد
ابن أبى الحسن الكلبى
والى جزيرة صقلية

إنى لجالس مع الفقيه الوثائقى فى مسجده بعد أن تغدينا وصلينا صلاة الظهر ثم اخذنا بأطراف الأحاديث بيننا إذ دخل علينا المسجد خادم من قبل الأمير، فذعر الفقيه عندما أخذت عينه هذا الخادم، فذعرت لذعره، ثم قال الخادم: إن الأمير يدعوك الساعة إليه ومعك ضيفك المصرى، فقلت للفقيه: أثَم ما يخاف منه فأفرخ رَوْعى[1] وقال: الآن لا أظن ثَمت شيئًا أكثر من رغبة الأمير فى أن يستطلع منك طلْع مصر والمصريين، وامرنا ـ حفظه الله ـ من خواص أهل الأدب وعلْيتهم، وإنه لذو حظ عظيم من رجاحة العقل وسجاحة الخلق يحب الادباء ويقربهم إليه ويتحدث معهم كما يتحدث النظير مع النظير، على أن اليوم فى صقلية كأنه عيد من أعياد الاهلين، إذ كان قد ورد من أيام على الامير كتاب من أمير المؤمنين المعز لدين الله بأمر الامير فيه باحصاء اطفال الجزيرة وأن يختتنهم ويكسوهم ويحبوهم بالعطايا فى اليوم الذى يختتن فيه ولد أمير المؤمنين، فكتب الامير خمسة عشر ألف طفل ثم اختتن ولده واخوته وقد أمر اليوم باختتان سائر أطفال الجزيرة وخلع عليهم وفرق فيهم مائة ألف درهم وخمسين حملا من الصلات وردت عليه من امير المؤمنين[2] فكيف نتوقع شراً من الأمير فى مثل هذا اليوم المبارك.

(١) أذهب خوفى.
(٢) تاريه أبى الفداء.

وقد كان مع الخادم بغلتان فارهتان من مطايا الأمير وقد جُلّلتا بالديباج وحُليتا بالفضة، فركبت أنا والفقيه وسرنا حتى وصلنا إلى دور الامارة فوقعت عينى على شيء لم تقع على مثله من قبل:

قصور كالكواكب لامعات
يكدن يضئن للسارى الظلاما

* * *

وقبة ملك كأن النجو م تفضى إليها باسرارها
لها شرفات كأن الربيع كساها الرياض بانوارها

* * *

كأن جن سليمان الذين ولو ابداعها فأدقوا فى مغانيها

ولما أن وصلنا إلى دور الامارة أشار علينا الخادم بالنزول وأسلمنا إلى الحجاب فساروا بنا فى ممر مفروش بالحصباء تتخللها الفسيفساء، ثم سلكوا بنا حدائق فيحاء، مترامية الانحاء، قد اغلولبت فيها الاشجار، وتعلقت باغصانها الاطيار، وانسربت فيها الجداول والانهار، واعشوشبت فيها النجوم[1] والازهار:

والجو من ارج الهواء كأنه ثوب يعنبر تارة ويمسك

وما زلنا إلى أن انتهينا إلى قصر الأمير، فرجع الحجاب بعد أن اسلمونا إلى الحجاب المقربين، فرقى بنا هؤلاء سلما ينتهى بالراقى عليه إلى بهو عظيم يملأ صدر الناظر إليه مهابة وجلالا، فاجتزناه واجتزنا بعده غرفا ومقاصير عدة حتى انتهينا إلى مجلس الأمير وناهيك به مجلسا لم أر ما هو أحق منه بقول من قال:

قصر لو أنك قد كحلت بنوره
اعمى لعاد إلى المقام بصيرا

(١) كل ما نجم من نبات الأرض.

أبصـــــرته فـــــرأيت أبدع منظر
ثمّ انثنيت بناظرى مـــحـــســـورا
فظننت أنى حـــــالـم فى جنة
لمـــا رأيت الملك فـيـه كـبـيـرا
تجـــرى الخـــواطر مطلقـات أعنة
فـيـه فـتكبـو عن مـداه قـصـورا
ضـحكت مـحـاسنه إليك كـأنمـا
جـعلت لهـا زهر النجـوم ثغـورا
وإذا الـولائد فـــتـــحت أبوابه
جـعلت ترحب بالعـفـاة صـريرا
عـضت على حلقـاتهن ضـراغم
فـغـرت بهـا أفـواهـهـا تكبـيـرا
فكأنمـا لبـدت لتـهـصـر عندها
من لـم يكن بدخـولـه مـأمـورا
ومـصـفـح الأبواب تبـرا نظروا
بالنقش فـوق شكوله تنظيـرا
وإذا نظرت إلى غـرائب سـقـفـه
أبصرت روضًـا فى السماء نضـيـرا
وضـعت بـه صناعـهـا أقـلامـهـا
فـأرتك كل طريدة تصـويرا
وكـأنمـا للشـمس فـيـه ليـقـة
مشـقـوا بها التزويق والتشجيرا[1]

(١) الأبيات لابن حمدٍ يس وقد تمثلنا بها على الرغم من تأخر زمنه عن زمن الرحلة ويحسب القارئ تنبيهه إلى ذلك.

فلما أقبلنا على المجلس غلبنى البهر من جلالة الأمير، فسلم الفقيه الوثائقى، ثم سلمت بعده بالامارة فردّ على السلام باشا فى وجهى واذن لنا بالجلوس، وقد كان قاضى القضاة جالسًا عن يسار الأمير، ثم أخذنا الأمير فى أحاديث شتى يقصد بها لعله أن يؤنسنى وينفى الوحشة عن ساحتى وبعد أن آنس منى الأنس به قال: أىّ منتوى يتوى أخونا المصرى إن شاء الله، فقلت: إنى أنتوى يا مولاى القطر الاندلسى، فقال: ومتى زايل مصر، فقلت: منذ نيف وعشرين يوما، فقال: وكيف فارقتها؟ فقلت: على أحسن حال يا مولاى الأمير، فقال: وكيف حال الأمير انوجور وحال كافور معه[1] فقد اتصل بنا أن كافورا قد استبد به وغلبه على أمره، فقلت: إذا كان كافور يا مولاى قد استبد بالامير انوجور فإن المصريين قد استبدوا بكافور، فقد أصبح كافور للمصريين لا لنفسه ولا للأمير، فسيرته فينا عادلة رشيدة، وحاله معنا جميلة سديدة[2] لأنه يعلم أن الملوك إنما هم خدام الرعية فكيف يظلمونها ويستجيزون كيدها، ولِمَ يستعبدون الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارًا؟ على أن كافور ليس هو وحده الذى ينهض باعباء الملك، وإنما يشد أزره، ويشاركه أمره، وزيرنا الأعظم أبو الفضل جعفر بن الفرات وغيره من رجالات الدولة، فقال الأمير: ولكن أليس أليق بكم وأسمى وأنبل أن يلى أمركم ابن بنت رسول الله ﷺ أمير المؤمنين المعز لدين الله، وأنت تعلم أيها الأخ أن العباسيين قد ضعف

(١) كان يلى مصر فى ذلك الوقت من قبل العباسيين أبو القاسم انوجور الاخشيدى ولصغر سنه كان أبو المسك كافور «وهو الذى اشتراه محمد بن طغج الاخشيد من رجل مصرى يسمى محمود بن وهب بن عباس بثمانية عشر دينارا وجعله أتابك ولديه» فكان كافور قيما على أنوجور مستبدا طبعا بالامر دونه وكانت الدولة الفاطمية المتولية على طرابلس وتونس والجزائر ومراكش فى ذلك العهد طامعة فى أخذ مصر وفعلا فتحتها بعد ذلك بضع سنوات بعد موت كافور.

(٢) كان كافور كما يقول ابن خلكان من اعظم الملوك جودا كثير الخشية لله والخوف منه وكان يجلس للمظالم بنفسه فى كل سبت وكان يرغب فى أهل الخير ويعطيهم وقد امتدحه المتنبى بقصائد عدة.

أمرهم، وتضعضعت حالهم، والتاث عليهم ملكهم، وانتزى الاعاجم والاتراك على البلاد فاقتطعوا الممالك منهم وتفردوا بالامر دونهم[١] أما عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس فقد اكتفى بما فى يده من الممالك المترامية الأطراف، فلم يبق إلا أن تستظلوا بظل خلفائنا الفاطميين حتى يحموكم ويردوا عنكم طمع الطامعين، وهنا طار طائر الغضب إلى رأسى فلم ألبث أن اندفعت قائلا: إن مولاى الأمير ـ حفظه الله ـ يعلم أنه إذا عُدّ من أظلم الظلم وأنكر النكر أن ينقض جارح من الجوارح على وكر طائر آمن فى سربه فيزعجه فى سكنه، وينغص عليه عيشته، ويستلبه سراحه وحريته، ويضطره إما إلى الظعن إلى جو غير جوه، أو الإقامة بجواره بين مخلبه وظفره، فإن من الظلم الذى لا ظلم وراءه أن تعدو أمة على أخرى وحجتها فى ذلك أن تحميها من طمع الطامعين، أليس من السفسطة، وأقعد ما يقال فى باب المغالطة، أن يعدو قوم على قوم بحجة أن هذا العدوان إنما هو وقاء لهم من عدوان آخرين؟ ولم لا تبدأ هذه الأمة بنفسها فتريح غيرها من عدائها، إن مولاى الأمير ليعلم أن حب الوطن من الإيمان ويقول رسول الله ﷺ : «حب الوطن من طيب المولد» ويقول: «ولا حب الوطن لخربت بلاد السوء» على أن فطرة الإنسان معجونة بحب وطنه، ولذلك يقول بقراط: يداوى كل عليل بعقاقير أرضه، ويقول جالينوس: يتروح العليل بنسيم بلده كما تتروح الأرض الجدبة ببلل القطر، ويروى أنه لما اسر سابور ببلد الروم قالت له بنت الملك ـ وكان قد مرض وعشقته ـ ما تشتهى؟ قال: شربة من ماء دجلة وشمة من تراب اصطخر فحملا إليه فبرأ وابلّ من مرضه، والكريم يا مولاى يحن إلى جنابه، كما يحن الاسد إلى غابه،

---

(٢) كان الخليفة العباسى فى ذلك الوقت هو المطيع لله وفى ايامه كانت فارس فى يد معز الدولة ابن بويه والموصل وديار بكر ومصر وربيعة فى يد سيف الدولة بن حمدان ومصر والشام فى يد الاخشيد والبصرة فى يد ابن رائق وخوزستان فى يد البريدى وكرمان فى يد أبى على بن الياس واصفهان والجبل يتنازعها آل نويه ومرداويج وما وراء النهر فى يد بنى سامان وطبرستان وجرجان فى يد الديلم والبحرين واليمامة فى يد القرامطة وذلك عدا الاندلس والمغرب.

وكفى دلالة على محبة الوطن قول الله جل شأنه: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه﴾ الآية ومن ثم كان ألأم بيت قالته العرب قول القائل:

تلقى بكل بلاد إن حللت بها
ناسًا بناس وإخوانا باخوان

فلا جرم أن يتغلغل حب مصر والمصريين فى السواد من حبة القلب منى، حتى لكأنى المعنى بقول من يقول:

كأن فؤادى من تذكره الحمى
وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

وكيف لا أحب بلدا ولدت فيه، وأرضه هى أول أرض مس جلدى ترابها، وقد طعمت غذاءها وشربت ماءها النمير، ماء نيلها المبارك الذى يعذر الاقدمون عن زعمهم أن الجنة منبعه انسرب منها إلى هذه الخضراء:

بلد صحبت به الشبيبة والصبى
ولبست فيه العيش وهو جديد
فإذا تمثل فى الضمير رأيته
وعليه أفنية الشباب تميد

* * *

ألا يا حبذا وطنى وأهلى
وصحبى حين يُذكر الصحاب
وما عل ببارد ماء مزن
على ظمأ لشاربه يشاب
بأشهى من لقائكم إلينا
فكيف لنا به ومتى الاياب

ومولاى الأمير يعلم علمًا ليس بالظن أن الحكام الغرباء عن البلاد مهما كانت منزلتهم من العدل لتأبى عليهم سنة الله فى خلقه إلا أن يضيموا الرعية التى لا تمت إليهم برحم أو آصرة موطن، أما رهط المرء فرحم الله من قال:

لعمرى لرهط المرء خيرٌ بقيةً
عليه وإن عالوا به كل مركب
إذا كنت فى قومٍ عدًا[1] لست منهم
فكل ما علفت من خبيث وطيب

لذلك كله أقول وأنا آمن الامير:

ولى وطن آليت أن لا ابيعه
وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا[2]

وهنا اطرق الأمير ثم انبعث قاضى القضاة قائلا: أظن اخانا المصرى لا يغيب عنه أن الأرض قد ملئت اليوم جورًا وظلمًا وعدوانا، وذاع الفساد فى البلاد، وعم الشر وطم، فلا بد من إمام عادل يملأ الدنيا قسطا وعدلا كما ملئت جورًا وظلمًا، ولا يكون هذا الإمام إلا من ولد فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وها هو ذا قد صدق رسول الله وعده وجاء إلينا إمام المسلمين العادل الرحيم البار برعيته، الداعى إلى

---

(١) غرباء.

(٢) البيت من أبيات لابن الرومى يقول فيها بعد هذا البيت:

عهدت به شرخ الشباب ونعمة
كنعمة قوم اصبحوا فى ظلالكا
فقد الفته النفس حتى كأنه
لها جسد أن بان غودر هالكا
وحبب اوطان الرجال إليهم
مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا اوطانهم ذكرتهم
عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

الحق والقائم بنصرته، مولانا وابن مولانا المعز لدين الله ابن مولانا المنصور ابن مولانا القائم ابن مولانا عبيد الله المهدى أدام الله تأييده، هذا إلى أنه لا يوجد اليوم بين ملوك المسلمين من هو اعز من مولانا نفراً، واكثر مالا ووفراً، واقوى سلاحا وشوكة، وأبعد فى سياسة الأمم تجربة وحنكة، فكان لذلك من الواجب الحتم على كل مسلم أن يعمل على نشر دعوته، ويستظل برعايته، فما كاد قاضى القضاة يتم كلامه حتى ابتدرت فقلت: إن المصريين لا ينكرون على أمير المؤمنين المعز لدين الله شيئًا مما قلت بيد أن مولانا ـ حفظه الله ـ يعرف مما عرف من طبائع البشر أن الأمة التى تغلب على امرها، ويخفق عليها لواء غيرها، وتصبح بالاستبعاد آلة لسواها وعالة عليها، يقصر أملها، ويبلى رجاؤها، وتضوى ارواحها:

واحتمال الاذى ورؤية جانيـ ـه غذاء تضوى به الاجسام

وذلك لما خضد الغلب عليها من شوكتها، وكسر من حميتها، فيفضى ذلك على كرّ الأدهار، وتعاقب الليل والنهار، إلى أن ترأم الذل[1] والاستخذاء، وتشتمل بأردية الكسل والوناء، فيكون من نتاج ذلك ضعف النشاط فى القوى الحيوية وهلم حتى يتناقص عمرانهم وتتلاشى مكاسبهم ويعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم، فيصبحوا مغلبين لكل متغلب، طعمة لكل آكل، نهبًا مقسمًا، لكل ناهب، وثمت شىء آخر وهو أن الإنسان يا مولاى رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذى خلق له، والرئيس إذا غلب على رئاسته، وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه وري كبده وهذا سر ركب فى غرائز البشر كما أنه وجد مثله فى الحيوانات المفترسة، فإنها لا تسافد كما يقولون إذا كانت فى مَلَكة الآدميين.

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام

* * *

(١) ترأم تألف.

وهنا كأن الامير اراد أن يُطوَى بساط هذا الموضوع فانتقل فجأة إلى معنى آخر فقال: هل يحفظ اخونا المصرى شيئًا مما مدح به المتنبى الشاعر كافورا؟ وهل لا يزال هذا الشاعر مقيما فى مصر؟ فقلت: نعم يا مولاى الأمير، لقد فارقت مصر ولما يزل المتنبى فى خدمة مولانا الاستاذ أبى المسك كافور، ولقد امتدحه بأحسن المدح، وحق له أن يمتدحه، إذ اللّها يا مولاى تفتح اللَّها[1] كما يقولون، فمما يعلق بالذاكرة مما انشدنيه، قوله فيه، بعد أن وصف الخيل التى سرت به إليه:

قواصد كافور توارك غيره
ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه
وخلت بياضًا خلفها ومآقيا

وقوله من قصيدة:

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه
وإن لم أشا تملى علىّ فأكتب
إذا ترك الإنسان أهلا وراءه
ويمم كافورا فما يتغرب

وفى هذه القصيدة يقول:

وما الخيل إلا كالصديق قليلة
وإن كثرت فى عَين من لا يجرب
إذا لم تشاهد غير حسن شياتها
واعضائها فالحسن عنك مغيب
لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب
فكل بعيد الهم فيها معذب

(١) اللها الأولى بضم اللام جمع لهوة وهى العطية واللها الثانية بفتح اللام لهاة وهى هناة حمراء فى الحنك معلقة على عكدة اللسان.

وله فيه قصيدة مطلعها:

أود من الأيام ما لا توده
واشكو إليها بيننا وهي جنده

يقول فيها من حكمته البالغة:

وأتعب خلق الله من زاد همه
وقصر عما تشتهي النفس وُجده
فلا ينحلل في المجد مالك كله
فينحل مجد كان بالمال عقده
ودبره تدبير الذي المجد كفه
إذا حارب الأعداء والمال زنده
فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله
ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

إلى أن يقول:

وما رغبتي في عسجد أستفيده
ولكنها في مفخر أستجده

وقوله فيه من أخرى مطلعها:

من الجآذر في زي الأعاريب
حمر الحلى والمطايا والجلابيب

* * *

كأن كل سؤال في مسامعه
قميص يوسف في أجفان يعقوب
إذا غزته أعاديه بمسألة
فقد غزته بجيش غير مغلوب

ويعجبنى من نسيب هذه القصيدة قوله:

كم زورة لك فى الأعراب خافية
أدهى - وقد رقدوا - من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لى
وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

إلى أن يقول:

ما أوجه الحَضَر المستحسنات به
كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفى البداوة حسن غير مجلوب

فقال الأمير: بيد أنه بلغنى اليوم فقط أن المتنبى زايل مصر بأخَرَة وهجا كافورا هجاء قاسيا مرا بأبيات يقول فيها:

لقد كنت أحسب قبل الخَصى
أن الرءُوس مقر النهى
فلما نظرت إلى عقله
رأيتُ النهى كلها فى الخُصَى
وماذا بمصر من المضحكات
ولكن ضحك كالبكى
بها نبطى من أهل السواد
يدرس أنساب أهل العلا
وأسود مشفره نصفه
يقال له أنت بدر الدجى

وشِـعـرٍ مـدحت به الكركدن
بين القريض وبين الرقى
فما كان ذلك مدحا له
ولكنه كان هجو الورى

إلى أن يقول:

ومن جهلت نفسه قدره
رأى غيره منه ما لا يرى

فقلت: إذا كان قد هجاه فقد قال الله جل شأنه: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «شر الناس من أكرمه الناس اتقاء لسانه» ورحم الله من يقول لا تؤاخ شاعراً فإنه يمدحك بثمن ويهجوك مجانًا، على أن المتنبى رجل ذو طماعية وطماح، وكان مولاى الأستاذ أبو المسك وعده بولاية بعض أعماله فلعله رأى منه بعد ذلك ما لم يستطع معه الوفاء بما وعد[1] فقال فيه المتنبى ما قال، قال الأمير ولكن للمتنبى فى سيف الدولة ابن حمدان وفى غيره ما هو أبرع مما مدح به كافورا، ويعجبنى من قصيدة له فى ابن حمدان قوله:

إذا ما سرت فى آثار قوم
تخاذلت الجماجم والرقاب[2]

---

(١) رووا أن كافورا كان قد وعد المتنبى بولاية بعض اعماله فلما رأى تعاليه فى شعره وسموه بنفسه خافه وعوتب فيه فقال يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد أما يدعى المملكة مع كافور.

(٢) اوضح هذا المعنى أبو بكر الخوارزمى فذكره فى ثلاثة أبيات قال:

وكنت إذا نهدت لغزو قوم ... واوجبت السياسة أن يبيدوا
تبرأت الحياة إليك منهم ... وجاء إليك يعتذر الحديد
وطلقت الجماجم كل قحف ... وانكر صحبة العنق الوريد

إلى أن يقول:

وكـــــيف يتم بأسك فى أناس
تصيبهم فيؤلمك المصاب
ترفق أيها المولى عليهم
فإن الرفق بالجانى عتاب
وأنت حياتهم غضبت عليهم
وهجر حياتهم لهم عقاب
وما جهلت أياديك البوادى
ولكن ربما خفى الصواب
وكم ذنب مولده دلال
وكم بعد مولده اقتراب
وجرم جره سفهاء قوم
وحل بغير جارمه العذاب

وقوله فيه من قصيدة:

يقود إليه طاعة الناس فضله
ولو لم يقُدها نائل وعقاب
أيا أسدا فى جسمه روح ضيغم
وكم أسد أرواحهن كلاب

وفى هذه القصيدة يقول:

وفى الجسم نفس لا تشيب بشيبه
ولو أن ما فى الوجه منه حراب
لها ظُفُر إنْ كلّ ظفر أعده
وناب إذا لم يبق فى الفم ناب

يغـيـر منى الدهر ما شـاء غـيـرها
وأبلغ أقـصى الـعـمـر وهى كـعـاب

إلى أن يقول:

ولـلـسـر منى مـوضع لا يناله
نديم ولا يفـضـى إليـه شـراب

ولله هو إذ يقول فى كلمة له:

دع النفس تـأخـذ وسـعـهـا قبل بينها
فـمـفـتـرق جـاران دارهـمـا العـمـر
ولا تحـسـبن الـمـجـد زقـا وقـينة
فمـات المجد إلا السـيف والفتكة البكر
وتضـربـت أعناق الـملـوك وأن تُرى
لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركـك فى الدنيـا دويـا كـأنمـا
تدَاوَلُ سـمعَ المـرءِ أنمله العـشـر
إذا الفـضل لم يرفـعك عـن شكر ناقص
على هبـة فـالفـضل فيمن لـه الشكر
ومن ينفـق الساعـات فى جـمع مـاله
مـخـافـة فـقـر فـالـذى فَعل الفـقـر

ثم قال الأمير: وهل لا يرى أخونا المصرى لأبى القاسم ابن هانئ الاندلسى شاعر أمير المؤمنين المعز لدين الله ما يستأهل به أن يُلَزَّ مع المتنبى فى قَرَن[1] فقلت: إنى أخشى يا مولاى أن أصرح برأيى، فقال: قل وأنت آمن، فقلت إنى لا

(١) يجاريه ويساوى به.

أشبهه يا مولاى إلا برحى تطحن قرونا[1] وإنى كلما أنشدت شعره فكأنى أسمع جعجعة ولا أرى طحنا، فاربد وجه الأمير غضبًا ثم تحالم وقال:

وهل يقال مثل هذا فيمن يقول:

يا بنت ذى السيف الطويل نجاده
اكذا يجوز الحكم فى ناديك
عيناك أم مغناك موعدنا وفى
وادى الكرى ألقاك أم واديك
منعوك من سنة الكرى وسروا فلو
عثروا بطيف طارق ظنوك
ودعوك نشوى ما سقوك مدامة
لما تمايل عطفك اتهموك
حسبوا التكحل فى جفونك حلية
تالله ما بأكفهم كحلوك
وجلوك لى إذ نحن غصنا بانة
حتى إذا احتفل الهوى حجبوك

ويقول من أبيات فى وصف الخيل:

تكاد تحس اختلاج الظنو ن بين الضلوع وبين الحشى
ومن رفقها أنها لا تحس ومن عدوها أنها لا ترى
وتحسب اطراف آذانها يراعا برين لها بالمدى
جرين إلى السبق فى حلبة إذا ما جرى البرق فيها كبا
ديار الاعزة لكنها مكرمة عن مشيد البنا

(١) هذه الكلمة لأبى العلاء قالها لما سمع شعر ابن هانئ.

وهل لمولانا المعز الذى يقول مثل هذا الشعر:

اطلع الحسن من جبينك شمسا
فوق ورد فى وجنتيك اطلا
وكأن الجمال خاف على الورد
جفافا فمدّ بالشعر ظلا

أن يقرب ابن هانئ إليه ويؤثره على غيره ويعتز به ويفاخر لولا أن رآه من الشعر بحيث لا يكاد يتخلف عن المتنبى؟ بلى وإذا كان فى المشرق المتنبى ففى المغرب ابن هانئ، وإذا كان فيه عبد الله بن المعتز فعندنا ابن مولانا المعز ـ الامير أبو على تميم[1] الذى يقول:

وكما يمل الدهر من اعطائه ... فكذا ملالته من الحرمان

(١) كان تميم بن المعز شاعراً ماهراً لطيفاً ظريفا ولم يل المملكة لأن ولاية العهد كانت لأخيه العزيز فوليها بعد أبيه المعز وقد توفى تميم بمصر سنة ٣٧٤هـ وله شعر جيد يشبه شعر ابن المعتز، فقد كان يحتذى مثاله ويقف فى التشبيهات بجانبه ويفرغ فيها على قالبه، ولا بأس بان نورد هنا قطعًا مختارة من شعره اشادة بذكره وتنويها بقدره لأنه يظهر أن كثيراً من ادباء هذا الجيل لا يعرفونه حق معرفته فمن قوله:

رب صفراء عللتنى بصفرا ... ء وجنح الظلام مرخى الازار
بين ماء وروضة وكروم ... ورواب منيفة وصحار
تتثنى به الغصون عليها ... وتجيب القيان فيها القمارى
وكأن الدجى غدائر شعر ... وكأن النجوم فيها مدارى
وانجلى الغيم عن هلال تبدى ... فى يد الأفق مثل نصف سوار

ويقول:

عتبت فانثنى عليها العتاب ... ودعا دمع مقلتيها انسكاب
وسعت نحو خدها بيديها ... فالتقى الياسمين والعناب
رب مبدى تعنت جعل العت ... ـب رياء وهمه الاعتاب
فاسقيها مدامة تصبغ الكا ... س كما يصبغ الخدود الشباب
ما ترى الليل كيف رق دجاه ... وبدا طيلسانه ينجاب
وكأن الصباح فى الافق باز ... والدجى بين مخلبيه غراب
وكأن السماء لجة بحر ... وكأن النجوم فيها حباب
وكأن الجوزاء سيف صقيل ... وكأن الدجى عليها قراب ـ

= ويقول:

وزنجيـــة الآبـاء كـرخـيـة الجلب
عـبـيـرية الانفـاس كـرمـية النسب
كـمـيت بزلنا دنهـا فـتـفـجـرت
بأحـمـر قـان مـقل قطر من الذهب
فلمـا شـربناها صـبـونا كـأننا
شربنا السرور المحصن واللهو والطرب
ولم نأت شيـئًا يسخط المجـد فعله
سـوى أننا بعنا الوقـار من اللعب
كـأن كـئـوس الشـرب وهى دوائر
قطائع مـاء جـامـد تحـمل اللهب
يمـد بهـا كـفـا خـضـيبا يديرها
وليس بشيء غـيـرها هو مـخـتـضب
فـبـتنا نسـقى الشـمس والليل راكـد
ونقـرب من بدر السـمـاء ومـا قـرب
وقـد حـجب الغـيم الهـلال كـأنه
ستـارة شرب خلقـهـا وجـه من أحب
كـأن الثـريا تحت حلكة لـونهـا
مـداهـن بلـور على الأرض تضطرب

ويقول:

كـأن السحاب الغـر اصبحن أكؤسا
لنا وكـأن الراح فـيـهـا سنا البـرق
إلى أن رأيت النجم وهـو مـغـرب
وأقـبل رايات الصـبـاح من المـشـرق
كـأن سـواد الليل والصـبح طـالع
بقـايا مجـال الكحل فى الأعـين الزرق

ويقول مفتخراً:

ألقى الكمى فـلا أخـاف لقـاءه ... ويغـل أقـدامى شـبـا الحـدثان
وأكر فى صدر الخـمـيس معانقًا ... للمـوت حـين يفـر كل جـبـان
وعلمت أخـلاق الزمـان فلم أضق ... ذرعـا بـأيامى وغـدر زمـانى
وكـمـا يمل الدهر من اعطائه ... فكذا مـلالتـه من الحـرمـان
وكـمـا يكر لمـعـشـر بسـعـادة ... فكذا يكر لمـعـشـر بهـوان =

ويقول:

وما أم خشف ظل يوما وليلة
ببلقعة بيضاء ظمآن صاديا
تهيم فلا تدرى إلى أين تنتهى
مولهة حيرى تجوب الفيافيا
أضرّ بها حر الهجير فلم تجد
لغلها من بارد الماء شافيا
فلما دنت من خشفها انعطفت له
فألفته ملهوف الجوانح طاويا
بأوجع منى يوم شدت حمولهم
ونادى منادى الحى أن لا تلاقيا

= فإذا رماك بشدة فاصبر لها ... فلسوف يأتى بعدها بليان
وسل الليالى عن نفاذ عزيمتى ... وسل الحوادث عن ثبات جنانى
تخبرك أننى لم ألقها ... بين العزائم واهن الأركان
أصبحت لا اشتاق إلا للندى ... ألفًا ولا أهوى سوى الاحسان
وإذا السيوف قطعن كل ضريبة ... قطع السيوف القاطعات لسانى

ويقول وهو مما يتغنى به:

قالت وقد نالها للبين أوجعه
والبيت صعب على الاحباب موقعه
اجعل يديك على قلبى فقد ضعفت
قواه عن حمل ما فيه وأضلعه
واعطف على المطايا ساعة فعسى
من شت شمل الهوى بالبين يجمعه
كأننى يوم ولدت حرة واسّى
غريق بحر يرى الشاطى ويمنعه

وشعره كله مختار ظريف.

ويقول:

أمـا والـذى لا يملك الأمـر غـيـره
ومـن هو بـالـسـر المـكـتـم أعلـم
لئن كـان كـتـمـان الـمـصـائب مؤلـمـا
لإعـلانهـا عـنـدى أشـد وآلم
وبى كـل مـا يبكى العـيـون أقـله
وإن كـنت مـنه دائـمـا أتبـسـم

وبعد ذلك رأيت من الحزامة أن لا أطيل سبب المحاجة، فخرجت بالصمت عن لا ونعم، ثم أمر لى الأمير بعطاء سنى، ثم أذن لى فى الانصراف من حضرته.

* * *

جزائر ميورقة ومنورقة ويابسة

وقبل أن أختتم هذه الرسالة آتى لك على شىء مما اعترضنا فى طريقنا بعد أن انفصلنا من بلرم قاصدين إلى المرّية، فمن ذلك أنا ونحن ازاء جزيرة كبيرة تسمى سردانية ابصرنا أسطولا كبيرا قادما من ناحيتها، وقد علمنا أن هذا الاسطول هو اسطول المعز لدين الله، غزا هذه الجزيرة، وبلاد جنوه من بر الأرض الكبيرة، وغنم وسبى شيئًا كثيراً يخطئه العد والإحصاء وما خام[1] فى سائر غزواته عن اللقاء، على ما فى ذلك من الغَرَر، إذ إن وراء هذه البلاد من امم افرنجة عديدَ الذر، غير أن المعز يفعل ذلك الفَينة بعد الفينة، لأنه يعلم أن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل وسيما الخسفَ وديُّث بالصَّغار[2] وإنّ أمةً من الأمم تريد أن تكون عزيزة مهيبة لا بد من أن تغزو غيرها قبل أن

(١) خام أى جبن ونكص.
(٢) أى ذلل يقال للبعير إذا ذللته الرياضة بعير مديث أى مذلل.

يغزوها الأغيار، ورضى الله عن على بن أبى طالب إذ يقول فى إحدى خطبه: ما غُزِى قوم قط فى عُقر دارهم إلا ذلوا.

* * *

وهذه سردانية جزيرة كبيرة فى غرب هذا البحر الرومى غزاها المسلمون حوالى سنة ٩٢ هجرية الموافقة سنة ٧١٠ ميلادية فى عسكر موسى بن نصير وملكوها حينًا من الدهر ثم تركوا حبلها على غاربها ثم هم الآن يغزونها من وقت لآخر ويغنمون ويسبون لما علمت.

* * *

وقد مررنا فيما مررنا به من جزر هذا البحر بجزائر ثلاث متجاورات تسمى ميورقة ومنورقة ويابسة[1] وهى جزائر عامرة مأهولة بالمسلمين يرجع أمرها إلى صاحب الاندلس، وعليها وال من قبله، ومن هنا تعلم أن المسلمين قد ملكوا ناصية هذا البحر الرومى بما فيه من الجزائر الكبيرة والصغيرة علاوة على جزائر بحر الظلمات «المحيط الأطلسى» كما أسلفنا لك، فسبحان المعز لمن يشاء، وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

* * *

«تمت هذه الرسالة ـ وقد كتبت على متن البحر وبيننا وبين المرية مسيرة يوم أو بعض يوم، وذلك فى شهر جونيه الرومى سنة ست وخمسين وتسعمائة الموافقة سنة خمس وأربعين وثلاثمائة هجرية».

---

(١) جاء فى نفح الطيب: وجزيرة ميورقه مسافة يوم بها مدينة حسنة وتدخلها ساقية جارية على الدوام وفيها يقول ابن اللبانة:

بلد اعارته الحمامة طوقها ... وكساه حلة ريشه الطاوس

فكأنما الانهار فيه مدامة ... وكأن ساحات الديار كئوس

وقال يخاطب ملكها فى ذلك الوقت:

وغمرت بالاحسان ارض ميورقه ... وبنيت ما لم يبنه الاسكندر

وإلى هذه الجزائر ينتسب جماعة من العلماء والادباء ارجانا ذكرهم إلى الرسالة الرابعة لأنها موضع ذلك.